١٠٠ قصة

قصص إنجليزية



محمد السباعي

قَصَصٌ إنجليزية

١٠٠ قصة

قصص إنجليزية

محمد السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ماتشاء

« شاكسبير » شاعر لا يحتاج إلى تعريف ، وتشارلس لام كاتب من كبار الكتاب الإنجليز كان من بعض آثاره التي وضعها شاكسبير فلخصها في موجزات تحفظ للأصل بلاغته وروعته ، وهذه هي إحدى هذه الروايات)

كان ببلدة ميساليني توأمان ، فتى وفتاة ، قد أفرط الشبه بينهما حتى تعذر على العين أن تميز بين أحدهما والآخر لولا تفاوت الزى والملبس . وكانا قد ولدا في ساعة واحدة . وفي ساعة واحدة أوشكا أن يهلكا . ذلك أنهما كانا ذات مرة في رحلة بحرية فأخذتهما العاصفة فتحطمت السفينة على صخرة ولم ينج إلا النزر القليل من ركابها ، وضمنهم الغادة فيولا . فلما وطئوا أديم الأرض وفقدت الآنسة أخاها شغلها الحزن على هلاكه عن الفرح بنجاتها ، فطفقت تبكيه وتندبه . ولكن الربان رفه عنها بقوله إنه أبصر أخاها إبان غرق السفينة قد تعلق بلوح متين حمله على الماء ، وما زال يحمله حتى غاب عن بصره . فسرى عن الفتاة لهذا النبأ وأخذت تفكر فيما عسى أن يصيبها وماذا هي صانعة في تلك الأرض السحيقة ، وسألت الربان ماذا يعلم عن « إليريا » (اسم تلك الناحية) ، فأنبأها أنها في إمرة الدوق أورزينو ، وهو سيد جليل نبيل وقد اشتهر عنه آنفا أنه أولع بالحسناء « أوليفيا » سليلة بيت من أعرق البيوتات حسبا ونسبا في ضئضئ المجد وبحبوح الكرم » وابنة سيد توفي منذ عام وتركها وصية على أخيها ، وقد مات ذلك الأخ بعد أبيه . ويزعمون أنها لفرط جزعها على أخيها زهدت في الرجال وحرمت على نفسها عشرة الناس ورؤيتهم . فتمنت فيولا لتشابه حالها وحال تلك السيدة في الفجيعة لو أتيح لها أن تعيش معها . وسألت الربان هل يستطيع أن يقدمها إلى أوليفيا فتكون لها خادمة . فأخبرها أن ذلك ليس بكائن لأن السيدة أوليفيا أصرت أن لا تأذن على نفسها لأحد كائنا من كان، حتى ولا الدوق ذاته . فلما يئست الفتاة من نجاح تلك الخطة ، حدثت نفسها بسلوك خطة أخرى هي أن

تتنكر فى زى الغلمان فتدخل فى خدمة الدوق نفسه . ثم استعانت على تنفيذ ذلك بالربان فأعطته نقودا ليجهز لها ثيابا ، وطلبت إليه أن يجعلها شبيهة بملابس أخيها لونا وشكلا . ولما جيء بالحلة الجديدة وارتدتها أفرط فيها شبهها بأخيها فكأنها هو لا ريب ولا جدال . وقد وقعت فيما بعد أغلاط مدهشة وحوادث عجيبة من جراء التباس أحدهما بالآخر ، وإشكال الأمر فيهما على الناس . وكان أخوها سباستيان قد نجا من الغرق أيضا .

ولما كانت للربان معرفة بحاشية الدوق ، استطاع أن يقدمها إلى ذلك الأمير باسم منتحل هو سيساريو ، فسر الدوق بالغلام أيما سرور وراقه منه رشاقة قده ورقة شمائله ، فألحقه بزمرة غلمانه ووصفائه . وقامت الفتاة فيولا فى زيها الجديد بأعباء وظيفتها الجديدة خير قيام ، وأظهرت من فرط الطاعة وشدة الإخلاص والولاء لسيدها ما رفعها عنده درجات ، وأفردها لديه بأخص منزلة وأسمى مكانة .

وكذلك أقبل الدوق على غلامه سيساريو فأطلعه على حديث غرامه بالسيدة أوليفيا ، وبثه شكواه وشجاه وما لقى منها من الصد والهجران ، وما كابد فى سبيلها من ألم الرفض والحرمان . ومن العجب أن ما كان يصفه الدوق للغادة فيولا من فرط هيامه بالسيدة أوليفيا ، كانت فيولا تقاسيه من أجله هو. إذ كان قد شغفها حبا وتيمها غراما . وقد جعلت تعجب للسيدة أوليفيا كيف لم يسبها جمال الدوق أورزينو ولم يصبها حسنه ، حتى قالت له تعريضا وتلميحا إن من نكد الدنيا أن يتعشق فتاة على بصرها غشاوة فهى لا ترى ما تحلى به من باهر الملاحات والمحاسن ، إلى أن قالت : « أرأيت لو أحبتك امرأة كحبك لأوليفيا (ولعل هذا هو الواقع) ثم لم تستطع أنت أن تحبها وأعلنتها بذلك ، أما كانت جديرة أن ترضى منك حتى بذلك » . بأمثال هذه الكلمات الخفية المعانى كانت فيولا تخاطب الدوق أورزينو ، وعليها كان يجيب بقوله : « من المحال أن يكون على ظهر هذه الدنيا فتاة تعشق حبيبا كما أعشق أنا الفتاة أوليفيا ، وإن قلب المرأة مهما انفسح لعوامل الحب ما كان إلا أضيق من أن يسع مثل حبى الذى تضيق عنه الأرض والسماء بما رحبت ، وتكل عن حمله الجبال الرواسى ، فمن السفاهة أن يقاس حب امرأة كائنة من كانت إلى حبى لأوليفيا » . ولكن فيولا كانت تعتقد فى أعماق نفسها أن هذا غير صحيح ، إذ أيقنت أن حبها للدوق كان لا

يقل عن حبه لأوليفيا ، ولذلك جعلت تقول « إنى لأعرف خلاف ذلك يا مولاى » . قال أورزينو « وماذا تعرف يا فتى ؟ » قالت فيولا « أعرف ماذا يكون مبلغ حب النساء للرجال ، لهن والله أوفى عهدا ، وأصفى ودا ، وقد كان لأبى ابنة أحبت رجلا مثلك ، ولو كنت فتاة لأحببتك . قال أورزينو « وماذا تعرف عن قصة حياتها ؟ » . فأجابت فيولا « ماحياتها إلا قفرة ملساء ، وفلاة جرداء ، موحشة خرساء ، لا شجر ولا ماء ، ولقد كتمت برحاء حبها فى سويداء لبها ، وتركت إبرة عقربه تأكل حبة فؤادها خفية فتذبل نضرة وجنتيها ، كما الآفة فى تلافيف الوردة تهتك خمارها الأرجوانى وتكسوها صفرة الورس .

فسألها الدوق هل ماتت تلك الفتاة حبا ؟ ، فأجابت جوابا مبهما .

وبينما هما فى هذا الحديث إذ دخل عليهما رجل كان الدوق قد أنفذه قبل أن يكون رسولا إلى أوليفيا ، فقال : « أصلح الله الأمير ، لقد أبت السيدة أن تأذن لى عليها ، ولكن وصيفتها استحملتنى هذه الرسالة : « لسوف تحجبن وجهها حتى عن السماء ذاتها حدادا على أخيها ، فتظل كالراهبة مقنعة تمطر حجرتها وابل دمعها الغزير سبع سنين ولاء » . فأطرق الدوق مليا ، ثم رفع رأسه قائلا: « سيساريو ، لقد أطلعتك على سرى ، وأفضيت إليك بجماع أمرى . اذهب إلى دار أوليفيا ، وابتغ هناك مدخلا ، وإن أبت فخبرها أنك قد غرست قدمك ببابها ولست بنازعها أبد الآبدين ، أو تأذن لك بالمثول بين يديها » قالت فيولا:« وإذا تم ذلك فماذا أنا قائل لها يا سيدى » قال أورزينو « اشرح هواى وصف لها فرط مابى ، ومثل أمامها مأساتى ، فإن حديث الغرام من لسانك العذب ، مشفوعا بلين ألفاظك وأعطافك ورقة شمائلك وظرفك جدير أن يكون أسرع إلى أذنها وأوقع فى جنانها »

وكذلك انطلقت فيولا ولكن على الرغم منها ، وكيف وما ذهبت إلا لتستعطف فتاة على رجل كانت ترى نفسها أولى به منها ، ولكنه عمل تعهدت بإنجازه فلم تدخر دون إنجازه وسعا .

وبلغ أوليفيا أن فتى بالباب يستأذن عليها . قالت الخادمة « لقد ألح فى ذلك أيما إلحاح ، فأعلمته أنك مريضة فزاد إلحاحا ، فقلت إنك نائمة فتمادى لجاجة ،

فماذا أصنع معه ؟ يخيل لى أنه تحصن من أساليب الرفض جميعا بأمنع درع من الصفاقة . وأنه أصر على لقائك أردت أم لم تريدى » . فانساقت السيدة أوليفيا برغبة الاستطلاع إلى رؤية ذلك العنيد ، فأذنت له بعد أن تقنعت ثم خاطبته قائلة : أدّ رسالة مولاك أورزينو ، فما كان غيره ليبعث إلىّ رسله » فتكلفت فيولاسيماء الرجال من هيبة وجلال ، وأطلقت لسانها بأساليب البيان الناصع والمنطق الخلاب ، تتحدى بذلك بلاغة المفوهين من جلساء الملوك وحاشية الأمراء ، قالت « يا زين ربات الحجال ، وشرك ألباب الرجال ، وصاحبة عرش الجمال ، خبرينى هل أنت ربة هذا القصر ، فما كنت لأبدد كلماتى هباء منثورا على سواك . فلكم تأنقت فى صوغ خطابتى التى أنا ملق على مسامعك الآن ، ولقد استظهرتها فوق ذلك » . قالت أوليفيا : من أين مقدمك يا سيدى ؟ » فأجابت فيولا : « إن جواب سؤالك هذا ليس ضمن محفوظاتى ، إنه ليس فى الدور الذى جئت لتمثيله » قالت أوليفيا : « هل أنت ممثل كوميدى ؟ » قالت فيولا: « كلا وعلى أية حال فإن حقيقتى خلاف ما أمثله » (تقصد إلى أنها فتاة فى زى غلام) ثم سألتها فيولا ثانيا هل هى ربةالقصر ، فردت على ذلك إيجابا . واشتاقت فيولا أن تبصر وجه تلك الغادة التى هام بها الدوق معشوقها هى ، فقالت : « سيدتى أرينى وجهك » . فلم تغضب السيدة لهذا السؤال على ما فيها من الجرأة . والواقع أن هذه السيدة ذات العظمة والكبرياء ، التى ضاعت آمال الدوق فى رياح نفورها هباء ، قد شغفت لأول وهلة بذلك الفتى المسمى سيساريو (على ما كانت تظن) .

ولما سألتها فيولا أن تريها وجهها قالت أوليفيا : « هل كلفك سيدك ومولاك أن تدخل مع وجهى فى مفاوضة ؟ » . وكأنها نسيت ما كانت عاهدت عليه نفسها من بقائها مقنعة سبعة أعوام ، فقالت وأماطت اللثام عن حر وجهها : « لا جرم سأرفع الستار وأكشف الصورة . ترى أيها الفتى هل أجاد الرسم راسمها ، وافتن فى الإبداع باريها ؟ » فأجابت فيولا « وأيم الله إن هو إلا الجمال فى أروع مجاليه ، والحسن فى أبدع مرائيه ، بل الملاحة معتدلة مزاجا ، والفتنة مفرقة مؤتلفة ، آحادا وأزواجا .

قالت أوليفيا : أوَقد جئت ههنا لتنظم فىّ قصائد الغزل والنسيب ؟ » .

قالت فيولا « إنما جئت أستميلك وأستعطفك . إن مولاى الكونت يحبك حبا يستوجب منك حسن الجزاء ، ولو توجت مليكة الحسن ، ونودى لك أميرة على من فى بالأرض من الغوانى ، فحسبك كبرياء ، واذكرى من الكونت قلبا خفاقا ، وجفنا دفاقا ، وزفرة بركانا ، ومدمعا طوفانا » .

قالت أؤليفيا : إن مولاك يعرف ما عندى له . إنى أجله لفضله ، وإن كنت لا أحبه ولن أستطيع ، ولكن خبرنى عن نسبك » .

قالت فيولا : « نسبى فوق نشبى . إنى من طبقة الأشراف ».

قالت أوليفيا : وبودها أن لا ينصرف الغلام من أمامها :

« اذهب إلى مولاك فأعمله أنه ليس فى طاقتى أن أحبه . وأن لا يبعث إلى رسولا إلا أن تكون أنت رسوله »

وكذلك انصرفت فيولا بعد أن ودعت السيدة أوليفيا بقولها : « وداعا أيتها السفاكة الحسناء ! »

ولما انصرفت الفتاة أقبلت أوليفيا تردد هذه الكلمات « إنى من طبقة الأشراف ، هكذا يقول الغلام سيساريو ، وما أراه إلا صادقا ،يشهد بذلك وجهه ولسانه وسائر جوارحه وذكاء قلبه وحدة فؤاده . » ثم جعلت تتمنى لو أن سيساريو كان الدوق . بهذا الكلام وأمثاله طفقت السيدة أوليفيا تناجى نفسها ، ثم بلغ من ذهولها عن شرف منصبها وأنساها فرق ما بينها وبين الغلام سيساريو أن أرسلت وراءه وصيفة تعطيه خاتما من ماس بعلة أنه قد نسيه لديها على أنه هدية من الدوق أورزينو ، وقد أرادت بهذه الحيلة أن تخطب وده . وقد أفلحت حيلتها إذ أدركت فيولا غرضها ومرماها ، وبدأت تتذكر أن نظرات أوليفيا ونبرات صوتها كانت تنم عن طرب وارتياح ، فألقى فى روعها أن حبيبة سيدها ومولاها قد هامت بها وجدا ، فقالت تحدث نفسها : وا أسفاه ! إن السيدة إن عشقتنى فما عشقت إلا طيف خيال وحلم نائم . فلترسل السيدة من الزفرات الخائبة مثل ما أرسل أنا فى حب أورزينو »

عادت فيولا إلى الدوق فأعلمته بفشل المفاوضات ، وأن أوليفيا تؤيسه كل اليأس من نجاح مسعاه عندها . ولكن الدوق أبى إلا تماديا فى آماله وآلامه ،

وسأل غلامه سيساريو أن يعيد الكرة على أوليفيا فيزورها من غده . فأسفت فيولا لتمادى معشوقها فى ميدان لن يبوء فيه إلا بالخيبة والخسران ، وبدت على وجهها أمارات الحزن والأسى . ولم يغب ذلك عن أورزينو فقال لها : ويحك يا غلام ! كأنى بعينك هذه قد أدمنت النظر فى صفحة وجه جميل لا تعشق سواه ، ألم تفعل ذلك ؟ » فأجابت فيولا « قليلا يا سيدى » . قال أورزينو « وأى امرأة هذه ، وماسنها ؟ » « فى مثل سنك وهيئتك يا سيدى » . فضحك الدوق من شغف هذا الغلام الصغير بامرأة أسن منه بمراحل ولها سمرة الرجال وسحنتهم . ولكن فيولا كانت فى ضميرها تعنيه هو نفسه لا امرأة تماثله .

ولما زارت فيولا أوليفيا المرة الثانية لم تجد من صعوبات الحجاب ما وجدته أول مرة . ولما مثلت أمام السيدة وفاتحتها فى شأن الدوق قالت أوليفيا : « أو لم أسألك من قبل أن تعرض عن ذكره ؟ لا تكلمنى فيه ،وإن كان لديك طلبة أخرى فبح بها ، أصغ إليك إصغائى لموسيقى الأفلاك فى أبراجها »

هذا الكلام من أوليفيا لم يدع مجالا للشك والريبة ، ولكنها لم يكفها ذلك حتى أعلنت حبها صراحا . ولما رأت الغضب والحيرة يمتزجان فى وجه الغلام قالت « ما أملحه راضيا وغضبان ، وما أحلى عاصفة الغضب تلاعب شفتيه ! سيساريو ! أما وزهرة الربيع فى شجرها ، وخفر العذراء فى خدرها ، لقد أحببتك برغم كبريائك حبا أطاح عقلى ولبى فما أطيق كتمانا » . ولكن عبثا تضرعت وابتهلت ، فقد انطلقت الفتاة فيولا من حضرتها على عجل ، وهى تقسم أنها لن تعشق امرأة أية كانت ما بقى فيها نفس يتردد .

وما كادت فيولا تنصرف فى دار أوليفيا حتى اعترضها فتى فدعاها للمبارزة ، وكان من عشاق أوليفيا وقد بلغه شىء عن ميل معشوقته إلى غلام الدوق ، فاشتعلت فيه الغيرة فتحين الفرصة وناصبه العداء . فلما أبصرته فيولا يدلف إليها شاهرا سيفه ، أسقط فى يدها وريعت . وإنها لكذلك إذ تقدم إليها رجل كأنه كان يعرفها منذ عهد بعيد ، وأمد مديد ، وكأنه من صفوة خلانها ونخبة إخوانها ، وقد أسرع لحمايتها وإنقاذها ، فأقبل على خصمها يقول « إن كان هذا الفتى قد أذنب إليك فذنبه على رأسى ، وإن أردت قتالا فمعى لامعه » . وقبل أن تتمكن فيولا من شكر هذا

الطارىء على جميل صنيعه ، وسؤاله عن العلة فى حسن تدخله ، أقبل رجال الشرطة فقبضوا على هذا الرجل الغريب باسم الدوق ، لمحاكمته على جريمة كان ارتكبها فيما سلف . فالتفت الرجل إلى فيولا وقال « هذا لبحثى عنك فى الطرقات ، ولو بقيت مستترا لما أصابنى كل هذا . وبعد ، فاعطنى الكيس الذى أعرتك إياه منذ برهة فلعلنى أحتاج إليه فى هذه الورطة ، بيد أنى على مصيبتك أنت آسف منى على مصيبتى . لقد أراك فى حيرة ، ولكن هون عليك ولا تحزن » . والواقع أن كلمات هذا الرجل أدهشت الفتاة وحيرت عقلها ، فصرحت أنها لا تعرفه ولا رأته من قبل ولا أخذت منه كيسا ولا غيره ، ولكنها جزاء له على ما أسدى إليها من منة ، تعطيه بضعة دراهم وهو كل ما تملك . فاستشاط الرجل من قولها غضبا ، ورماها بالقسوة والجحود قائلا « هذا الفتى الذى ترونه أمامكم قد أنقذته من مخالب الموت ، ومن أجله وحده قدمت بلدة ايليريا مخاطرا بنفسى » .ولكن رجال الشرطة لم يحفلوا بشكوى أسيرهم ، فمضوا به سراعا وهو يصيح بالفتاة فيولا يدعوها سيباستيان ، ويعاتب سيباستيان هذا الذى كان يتوهمه فى خياله على إنكاره صديقه ونكرانه جميله . فلما سمعت الرجل يناديها باسم أخيها ، قام بظنها أن هذا الحادث الغامض ربما كان منشؤه التباس شخصها بشخص أخيها ، وأملت أن يكون أخوها هو ذلك الذى يزعم الرجل أنه أنقذه . وكذلك كان الأمر ، فذلك الرجل المدعو أنطونيو كان ربان سفينة ، وكان قد اختطف الغـلام سيباستيان من براثن المنون ، وطوافر الموج تطفو به وترسب ، فأكرم مثواه واتخذه حميما ، وآلى لن يفارقه أبدا . ولما رغب الغلام فى زيارة قصر الدوق أورزينو ، لم يزايله ، بل صحبه ، مع علمه أن فى ذلك مخاطرة بحياته إذ كان قد وتر الدوق بجرحه ابن أخيه جرحا بليغا فى مبارزة ، وتلك هى الجريمة التى اعتقل الآن من أجلها .

وكان أنطونيو وسيباستيان قد هبطا بلدة إيليريا قبل التقاء أنطونيو بالغادة فيولا ببضع ساعات ، وكان قد أعطى سيباستيان كيس نقوده ليبذل منه ما شاء فى حاجاته ، وخبره أنه منتظره بالخان ريثما يجول جولة فى المدينة .

وأبطأ سيباستيان فخرج أنطونيو فى طلبه . ولما كانت فيولا تشبه أخاها تمام الشبه صورة وزيا ، انتضى أنطونيو حسامه دفاعا عن الفتى صديقه (كما توهم) ، ولما أنكره الفتى - كما خيل إليه - وجحده ،أتهمه بنكران الجميل ولا عجب .

ولما ذهب رجال الشرطة بأنطونيو ، أسرعت فيولا فرارا إلى قصر الدوق . وما هي إلا هنيهة ، حتى خيل إلى خصمها – وكان لا يزال ثابتا مكانه – أنه يراها عائدة إليه . ولكن ذلك القادم كان فى الحقيقة أخاها سيباستيان الذى شاءت الأقدار أن يصل إلى تلك البقعة فى هذه الآونة . وإذ ذاك باغته ذلك الخصم بقوله « أوقد عدت يا فتى ؟ هاكها » . وقراه ضربة شديدة ، فردها عليه سيباستيان مضاعفة ، ولم يك فروقة ترعابة ، ولا منخوب الفؤاد رعديدا ، ثم امتشق صمصامته .

فى هذه اللحظة خرجت أوليفيا من دارها . ولما أبصرت سيباستيان ظنته معشوقها سيساريو فدعته إلى دارها ، وأبدت له مزيد أسفها ما لقى من اعتداء ذلك الرجل الفظ . فدهش سيباستيان فى ملاطفة الفتاة له ، دهشته من حملة الفتى عليه ، ولكنه دخل الدار . وسر أوليفيا أن رأت سيساريو - كما توهمت - قد استحال غضبه رضا ، وشماسه إسماحا ، وجماحه إسجاحا .

لم ينكر سيباستيان ما أفاضت عليه السيدة من سجال التقريظ والإطراء ، وما غمرته به من شآبيب الغزل والنسيب ، بل تقبله بمزيد الرضا والارتياح . على أنه ظن فى أول الأمر أنه لا بد أن يكون بعقلها مس من خبل . ولكنه لما أبصر حسن تصرف السيدة فى سياسة دارها وتدبير شئونها ، وأنها تبدى حكمة وسدادا فى كل شيء سوى ما بادرته به من ذلك العشق الفجائى ، أحسن الإصغاء إليها ، والإقبال علها ، وتقبل منها ما زفت إليه من آيات التودد والتحبب بمزيد السرور . وانتهزت أوليفيا هذه الفرصة مخافة أن يعود الفتى إلى حاله الأولى من النفرة والصدود ، فاقترحت أن تزوج منه للتو واللحظة . فوافق سيباستيان على ذلك ، وجيء بقسيس البيت فعقد له عليها . ولما تم ذلك ترك الفتى زوجته أوليفيا هنيهة ليبحث عن صديقه أنطونيو فينمى إليه ما ساقه إليه الحظ من هذه النغمة الجزيلة .

وفى هذه الأثناء خرج الدوق أورزينو لزيارة أوليفيا . ولما اقترب من دارها ، أتاه رجال الشرطة بالربان أنطونيو معتقلا ، وكانت فيولا مع سيدها الدوق ، فلما أبصرها أنطونيو - وكان لا يزال يحسبها سيباستيان - شرع يبث الدوق شكواه ،

وكيف أنقذ ذلك الغلام من الغرق واستصحبه ثلاثة أشهر لم يدخر خلالها وسعا في إكرامه والاحتفاء به .

في هذه اللحظة خرجت السيدة أوليفيا من دارها ، فانصرف الدوق عن حديث أنطونيو إليها قائلا « هذه السيدة أوليفيا إن هي إلا جنة الفردوس تمشي على أديم الأرض . أما عن حديثك يا هذا فما هو إلا هذيان مجنون . هذا الغلام في خدمتي منذ ثلاثة أشهر لم يكد يفارقني في خلالها طرفة عين » ، ثم أمر بأنطونيو أن ينحي جانبا .

وهنا أعرضت السيدة أوليفيا عن الدوق ، وأقبلت على فيولا تكيل لها كلمات التودد والحنان جزافا مما أوغر صدر الدوق على غلامه سيساريو ، إذ اتهمه بالغدر والخيانة ، فتهدده بأفظع التنكيل والنكاية ، ثم هم بالانصراف وهو يقول لفيولا « اتبعني أيها الغلام ، سترى كيف يكون عقابي » .

ومن عجب أن فيولا برغم ذلك الوعيد الذي ربما كان في تنفيذه الموت الزؤام ، تبعت سيدها مدفوعة بعامل حبها الشديد . ولكن أوليفيا ما كانت لتترك زوجها سيساريو فريسة في براثن الدوق ، فصاحت « أيان يذهب حبيبي سيساريو ؟ » . قالت فيولا « في أثر من هو أحب إلي من روحي الذي بين جنبي » . ولكن أوليفيا حالت دون انصرافهما بتصريحها أن سيساريو زوجها الشرعي ، واستدعت القسيس فشهد أنه منذ ساعتين زوج السيدة أوليفيا من هذا الفتى . وعبثا حاولت فيولا تكذيب هذه الشهادة ، وآمن الدوق أن فتاه قد سلبه قرة عينه ومتعة حياته . وإذ قد علم أنه لا راد لهذا القضاء ، استسلم للقدر وودع حبيبته الغادرة وغلامه المنافق زوجها ، وأنذره أن لا يريه وجهه آخر الأبد .

وفي هذه اللحظة قامت أمامهم معجزة من أعجب المعجزات . وذلك أن سيساريو آخر قدم عليهم وخاطب أوليفيا بلفظ « زوجتي » . وسيساريو الجديد هذا هو سيباستيان زوج أوليفيا الحقيقي . وبعد أن سكن قليلا ما تولاهم من الدهش لرؤية شخصين لهما وجه بعينه ، وصوت بعينه ، وزي بعينه ، تخاطب الأخوان وتعارفا ، واعترفت فيولا أنها فتاة وأنها أخته متنكرة في زي الذكران .

ولما انحسر القناع عن كل هذه الأغلاط التي سببها فرط تشابه الأخوين ،

أقبل الجميع يضحكون مما اتفق للسيدة أوليفيا من تعشقها فتاة مثلها ، ورضيت أوليفيا بقسمتها حينما رأت أنها اقترنت بالأخ بدلا من الأخت .

وكذلك انقضت آمال أورزينو من ناحية أوليفيا . وبانقضاء آماله ، أخذت غمرة غرامه تنجلي وتنقشع ، وشرع يفكر فى أمر غلامه سيساريو الذى استحال غادة . فأقبل يتأمل فيولا بعين ملؤها الإعجاب ، ثم تذكر سالف خدمتها ، وجزيل وفائها وإخلاصها ، وما كانت تعرض به كثيرا من حبها إياه وولوعها به ، من تلك الكلمات الغامضة الخفية التى كان يراها إذ ذاك ألغازا ، فأصبح الآن يفقه مغزاها ومرماها .

عندئذ اعتزم الدوق أن يتخذ فيولا زوجة له فقال لها يخاطبها بصيغة المذكر ، وكأنه لطول اعتيادها لم يستطع تغييرها لأول وهلة « أيها الغلام سيساريو . جزاء على فرط إخلاصك وولائك ، وما تبين لى من شدة افتتانك بى وهيامك ، سأتخذك زوجة لى ، فتصبح سيدة سيدك والدوقة أورزينو » .

الشريدة

كان « ليونتيس » ملك صقلية وزوجته المليحة العفة الطاهرة « هرميونى » يعيشان على أتم وئام ووفاق . وكان هذا الملك لفرط شغفه بزوجته واستمتاعه بأفانين محاسنها الجمة ، يرى أنه قد نال كل المنى سوى أمنية واحدة كان ينزع إليها فؤاده أحيانا ، وتلك هى أن يحظى مرة بلقاء زميل صباه ورفيق حداثته « بولكسينيز » ملك بوهيميا. وكان قد نشأ معه منذ الطفولة إذ ضمتهما مدرسة واحدة قبل أن يجلسا على عرشى أبويهما . وكان قد مضت على ذلك العهد سنون عدة جعلا يتبادلان خلالها الرسائل والتحف .

وأخيرا قدم « بوليكسينيز » ملك بوهيميا على إثر الدعوات المتتابعة من صديقه إلى بلاط مملكة صقلية ، ليؤدى لمليكها واجب الزيارة .

فسر به صديقه أشد سرور ، وقدمه إلى زوجته الملكة وعدد لها محامد سجاياه ومحاسن مزاياه . وجعلا يتذكران معاهد الصبا وملاعب الطفولة ، ويقصان من أحاديثها العذاب على مسامع الملكة « هرميونى » ما كان يملؤها عجبا وطربا .

ولما هم ملك بوهيميا بالعودة إلى بلاده ، سأل « ليونتيس » زوجته الملكة أن تضم صوتها إلى صوته فى الإلحاح على ضيفهما أن يطيل أمد بقائه برهة فأجاب سؤلهما .

وهنا بدأت مأساة تلك الملكة الكريمة العفة إذ قال الملك « ليونتيس »فى نفسه « إن ضيفى « بوليكسينيز » قد رفض رجائى حين سألته إطالة المكث عندى ، فلما استمالته زوجتى بعذوبة ألفاظها وحلاوة نغماتها رق قلبه ولان وأجاب طلبها »

وعلى الرغم من اعتقاده العفة والطهر والوفاء فى زوجته وصديقه سواء ، استحوذ عليه وأمتلكه شيطان الغيرة الجهنمية ، وجعل كلما رأى من زوجته آية عطف جديدة على الضيف ازداد لهيب غيرته احتداما . وبعد أن كان أبر الناس

طرا بالزوجة أصبح أقسى العالمين قاطبة ، وأحقدهم على الصديق والزوجة ، فاستحال وحشا ضاريا ، وسبعا عاديا .

واستدعى « كاميلو » أحد وزراء الدولة وأطلعه على حديث شكه وارتيابه ، ثم أمره أن يسم « بوليكسينيز » . ولما كان « كاميلو » هذا رجلا تقيا صالحا ، وكان يعلم أن تهمة الملك وريبته لا أساس لهما من الصحة ، أفضى بجلية الأمر إلى الضيف « بوليكسينيز » واتفقا على الهرب معا من بلاد صقلية .

وقد أنجح الله مسعاهما فوصلا سالمين إلى بوهيميا ، وهنالك أصبح « كاميلو » صديق الملك « بوليكسينيز » ووزيره .

فأضرمت هجرة « كاميلو » لهيب الحنق فى صدر الملك« ليونتيس » ، فعمد إلى حجرة زوجته فألفاها تلاعب طفلها ماميلاس » وهو يسليها ويمتعها بإحدى قصصه الشائقة . فأمر بالطفل أن ينحى وبالأم أن تسجن .

وكان الطفل « ماميلاس » شديد المحبة لأمه ، فلما رأى ما حل بها من الإهانة والسجن ذاب قلبه الصغير كمدا ، وأضناه الهم حتى ضمر وهزل وفقد شهية الطعام ولذة المنام . وجعل أهل البلاط يحسبونه فى عداد الموتى ..

وأرسل الملك اثنين من رجال دولته إلى معبد « أبولو » ليستطلعا من الكاهنة حقيقة أمر زوجته ، وهل كانت غادرة أو وفية .

وما كاد يمضى على الملكة فى السجن بضعة أسابيع حتى جاءها المخاض فولدت صبية . فخفف منظر هذه المولودة البديعة من برحاء أحزان الأم ، وأقبلت على الطفلة تناجيها .

« أيتها السجينة الصغيرة ، الله يعلم أنى وإياك فى البراءة سواء » ..

وكانت السيدة « بولينا » الكريمة العنصر السامية الروح صديقة للملكة ، وقد أذاب قلبها ما أصاب تلك الطاهرة النقية ، فعمدت إلى السجن وفاوضت الحارسة فى أن تخبر الملكة نبأ قدومها ، وأن تبعث إليها بالمولودة لتذهب بها إلى الملك لعله إذا أبصر فلذة كبده رق ولان وندم على ما كان .

فدخلت الحارسة على الملكة ، وما هى إلا لحظة حتى عادت بالمولودة .

وتناولت السيدة « بولينا » حملها الضئيل الجليل ، ودخلت به على الملك

فوضعته بين يديه ، ثم ألقت خطابا مسهبا دفاعا عن الملكة « هرميونى » لامته فى سياقه على فرط قسوته وغلظته ، وسألته الرحمة والحنان على ابنته وزوجته البريئتين .

ولكن هذا الخطاب المؤثر الحماسى لم يزد الملك إلا عتوا وطغيانا ، فأمر بإخراج السيدة النبيلة من حضرته .

وتركت هذه السيدة عند خروجها الطفلة بين يدى أبيها ، وهى تحسب أنه إذ خلا إليها بعد هنيهة أخذته الشفقة وحركته عوامل الحنان فرق إلى صغرها ونزاهتها ، وعطف على ضعفها وبراءتها .

ولكن أخطأ ظنها . فما هو إلا أن غادرت المكان حتى أمر الملك أحد رجاله أن يذهب بالطفلة فيركب بها متون البحار ، ثم يلقيها على ساحل إحدى البقاع النائية .

ولكن الذى كلف بهذه المهمة كان رجلا غليظ القلب ، فنفذ أمر الملك بحذافيره .

لقد بلغ من شدة تسلط الغيرة على عقل الملك أنه لم ينتظر عودة الرسولين من سفارتهما إلى الكاهنة ، فأسرع إلى استدعاء الملكة لمحاكمتها علنا أمام رجال الدولة والبلاط قبل تمام شفائها من النفاس . وبينما هذه الملكة الكريمة ماثلة أمام قضاتها مثول الآثمين المجرمين ، دخل الرسولان ورفعا إلى الملكة فتوى الكاهنة فى ظرف مختوم ، فأمر بفض الخاتم وتلاوة الرسالة علنا . فإذا فيها « هرميونى » بريئة و « بوليكسينيز » برئ و « ليونيتس » ظلوم غشوم جبار عنيد ، وسيعيش بلا وارث ما لم يرد المفقود . فلم يعبأ الملك بفتوى الكاهنة ولم يكترث ، وقال إنها أكذوبة لفقها أنصار الملكة تعمية وتضليلا ، وأمر القضاة بمواصلة التحقيق . وفى تلك الآونة دخل أحد الخدام فأنبأ أن « ماميلاس » ابن الملك ، لما بلغه نبأ محاكمة أمه أصابه من الهم والكمد ما أودى بحياته .

فلما سمعت الملكة ذلك خرت مغشيا عليها ، عند ذلك دبت الرحمة فى فؤاد الملك وسرى الندم إلى قلبه ، فأمر صاحبات الملكة أن يحملنها ثم يبذلن أقصى الجهد لإذهاب غشيتها . ولكن بولينا ما لبثت أن عادت إلى الملك فأبلغته أن

عند ذلك تبين له أن زوجته كانت بريئة ، فندم أشد الندم على ما كان من فرط قسوته عليها . واتضح له أن كلام الكاهنة كان حقا . وعلم يقينا أنه ـ كما قالت الكاهنة ـ « ما لم يرد المفقود (أى ابنته الصغيرة) عاش بلا وارث » إذ كان ابنه قد مات . وود لو ترد إليه ابنته ويسلب ملكه .

وكانت السفينة التى ركبها الرجل المكلف بإقصاء المولودة قد أصيبت بعاصفة قذفت بها على ساحل بوهيميا ـ مملكة « بوليكسينيز » الصالح البار . وهنا أرسى الرجل وطرح الطفلة الصغيرة . وفيما هو عائد إلى صقلية خرج عليه دب من إحدى الغابات فمزقه . وكذلك أصاب جزاءه .

وكانت الطفلة مكسوة أبهج حلة ، محلاة بأنفس الجواهر وقد ألصقت بها ورقة مكتوب عليها « شريدة » مع كلمات أخرى تدل دلالة خفية على شرف نسبها ورفعة شأنها .

وما لبثت الطفلة المسكينة أن عثر عليها أحد الرعاة وكان رجلا رحيما ، فاحتمل « شريدة » الصغيرة إلى زوجته فعنيت بتربيتها أشد عناية . وتناول الراعى شطرا من حلى الطفلة وجواهرها فباعه واشترى بثمنه قطعانا من الماشية فانتعش وأثرى ، وتبنى الصبية فنشأت وهى لا تعرف لنفسها أبا غيره .

وكذلك شبت « شريدة » وترعرعت واستحالت غادة فتانة . وهى وإن لم تنل من التأديب والثقافة أكثر من حظ بنات الرعاة ، لقد تحلت من محاسن سجاياها الفطرية وحلاوة شمائلها الغريزية ، بما أغنى عن تأديب أرقى المربيات . فمن يراها لم يشك فى أنها ربيبة بيت مملكة أو إمارة .

وكان لملك بوهيميا نجل فريد يدعى « فلوريزيل » فبينما كان هذا الأمير الصغير فى بعض جولاته أبصر الغادة « شريدة » بجوار دار أبيها الراعى (كما كان يظن) فراعه من حسنها الفتان ما راعه ، ومن ذلك الآن جعل يتردد على الراعى فى زى مستعار واسم منتحل « دوريكليز »

ولما كثر تغيب « فلوريزيل » ، قلق أبوه وأوجس عليه خيفة فأذكى عليه الأرصاد والعيون ، فما لبثوا أن أتوه بنبأ غرام ولده بابنة الراعى .

فاستدعى الملك وزيره « كاميلو » ذلك البر الكريم الذى نجاه من عائلة « ليونيتس » ، وسأله أن يصحبه إلى منزل الراعى :

وصل الملك ووزيره إلى منزل الراعى وقت الاحتفال بعيد جز الماشية ، وكان من خصائص هذا العيد الترحيب فيه بكل طارق وإن كان غريبا مجهولا . فانضم الطارقان إلى أهل الدار وشاطراهم المرح والحبور .

وكانت الموائد منصوبة والكئوس مصفوفة . وبعض الشبان يرقصون فى ساحة الدار والبعض على الباب يشترون ضروبا من الأوشحة والمناطق والقفازات من بياع جوالة .

ولكن ابنه « فلوريزيل » كان قد انتبذ بمعشوقته « شريدة » زاوية من المكان ، وكأنه قد اكتفى من جميع متعات العيد ومناعمه بلذة الخلوة بحبيبته والاستمتاع بعذوبة مناجاتها .

وكان الملك من شدة التنكر على حال لا تمكن ابنه من معرفته ، فتقدم حتى صار بمسترق الحديث ومستمع النجوى فملكه العجب والإعجاب بحلاوة حوار الفتاة حتى قال لوزيره كاميلو « لهذه أحسن وأفتن من شاهدت من فتيات الطبقة الوضيعة . وما من لفظة أو حركة أو إشارة تصدر عنها إلا وفيها معنى أسمى منها وأسنى - ومعنى يجل عن مثل هذا المكان ويشرف . »

وقال كاميلو « حقا إنها ملكة الألبان والأجبان » .

وأقبل الملك على الراعى فسأله « خبرنى يا صاحبى من ذلك الفتى الوضىء الذى يتحدث إلى ابنتك ؟ »

فأجاب الراعى « إنهم يدعونه « دوريكليز » وهو يزعم أنه يتعشق ابنتى . على أنه لا يعلم أيهما بصاحبه أشغف ، ولو استطاع دوريكليز أن يحصل عليها إذن لساقت إليه من الثروة مالا يخطر له على بال » (يريد بذلك بقية الحلى والجواهر التى تركها لتجهيزها عند الزواج) .

والتفت الملك إلى ابنه فقال : « إنك عن العيد وأهله لفى شغل . إنى حينما كنت شابا مثلك لم أكن أضن على حبيبتى بالتحف والهدايا . وأنت قد تركت بياع اللعب يذهب ولم تشتر لصاحبتك شيئا » .

فقال الفتى وهو لا يحسب أنه يخاطب أباه :

« أيها الشيخ إنها لا تحفل بأمثال هذه التوافه ، إن ما تنتظره من تحفى وهدياتى مكنون لها فى أعماق قلبى . »

ثم التفت إلى « شريدة » فخاطبها قائلا « اسمعي يا شريدة إني أشهد هذا الشيخ الذى أحسب أنه خبر العشق وجربه على أنى أعطيك عهد الله وميثاقه أن أرضاك زوجة إذا ارتضيتنى بعلا . أيها الشيخ كن شاهدا على هذا الزواج » .

فصاح الملك مغضبا ، وأعلن شخصيته الحقيقية .

« بل شاهدا على الطلاق يا أحمق » ثم طفق يعنف ابنه أشد تعنيف ، ويعجب من جرأته على عزيمة الزواج من صبية حقيرة ابنة راع . وانهال على الحسناء بالمساب ، وتوعدها وأباها بالقتل إن هى أباحت لابنه أن يطأ سدة دارهم بعد ذلك .

ثم انصرف الملك مغضبا ، وأمر « كاميلو » أن يتبعه بالأمير « فلوريزيل »

لقد أثارت مطاعن الملك وقوارصه عوامل الحمية الملكية فى صدر الفتاة ، فقالت : « إنى لا أعبأ بتهديدات الملك ولو كان فيه هلاكنا . ولقد هممت والله أن أقول له إن الشمس التى تشرق على قصره تشرق على كوخنا ، وأننا وإياه عند الخالق سواء . ولكنى أرانى بعد قد انتبهت من أحلامى وأدبرت عنى تلك الدولة التى كانت مقبلة ، فدعنى وشأنى الآن يا سيدى سأمضى لأحلب أبقارى وأبكى » .

فافتتن الوزير كاميلو بما أبدته الفتاة من العزة والإباء . ولما رأى أن غرام الأمير الصغير ليس مما يزيله غضب الآباء وأنه ماض ولا شك على عزيمته مهما كانت العاقبة ، فكر فى حيلة ينقذ بها العشيقين ، ويبلغ نفسه أمنية طالما خالجت قلبه .

لقد كان يعلم أن « ليونتيز » ملك صقلية قد ندم على ما فعل فلا ضير الآن من مواصلته ، هذا فضلا عما كان يذيب من قلب ذلك الوزير من فرط الحنين إلى وطنه ، فاقترح على العشيقين أن يذهب بهما إلى مملكة صقلية حيث يستظلان برعاية ملكها ، ويسألانه الشفاعة لهما عند صديقه ملك بوهيميا لعله أن يسمح بزواجهما .

فوافق الكل على هذا الاقتراح ، وجهز كاميلو أسباب الرحيل وأباح للراعى أن يصحبهم .

فأخذ الراعى بقية حلى الفتاة وجواهرها وثياب طفولتها ، والورقة التى كانت بها ملصقة .

ووصل الجميع إلى بلاط « ليونتيز » ملك صقلية ، فرحب هذا الملك بوزيره القديم « كاميلو » وبمن كان فى صحبته وأكرم مثواهم ، وكان لا يزال فى حداد على زوجته وغلامه .

لقد أقبل يتأمل محاسن الفتاة « شريدة » ، وكانت قد استغرقت لبه واستولت على مشاعره ، ولمح فيها مشابه من زوجته « هرميونى » فتجددت لوعته وتأججت حرقته وسالت عبرته . وقال « قد يكون لى ابنة كهذه لو لم ألق بها إلى التهلكة » .

ثم التفت إلى « فلوريزيل » فقال « ولقد خسرت أيضا صحبة أبيك وصداقته ، وما أشد شوقى إليه الآن ، لوددت لو رأيته وأموت من بعدها »

ولما بلغ الراعى ما أبداه الملك من شدة الإقبال على « شريدة » وقوله إن فيها مشابه من زوجته الفقيدة ، وأنه قد كان له طفلة فأمر بإخراجها من مملكته واطراحها بإحدى الفيافى والقفار ، أخذ يقارن تلك القصة بقصة « شريدة » . لا بد أن تكون هى ابنة الملك المفقودة .

وكذلك تقدم الراعى إلى الملك فقص عليه فى حضرة « فلوريزيل » و« شريدة » و « كاميلو » والسيدة الوفية الأمينة « بولينا » حديث عثوره على الطفلة ملقاة على ساحل اليم ، ثم أبرز الثياب التى كانت عليها يومذاك فعرفتها السيدة « بولينا » ، وأقرت بأنها عين ما كانت تكتسى يوم أخذتها من أمها ، وأبرز جوهرة تذكرت بولينا أن هرميونى كانت علقتها فى جيد الطفلة ، وأبرز الورقة المكتوب عليها لفظة « شريدة » وهى التى كانت « بولينا » أبصرت الرجل المكلف بتشريد الطفلة يكتبها بيده قبل ارتحاله . وهكذا لم يبق ثمت مجال للشك فى أن « شريدة » هى ابنة الملك ، فما أعظم سرور « بولينا » وفرحة الملك « ليونتيز » . على أنه أذاب قلبه وفتت كبده أن أمها ليست على قيد الحياة فتسر برؤية ابنتها . وقال :

« ما أشد فرحى بك يا بنيتى ! ..ولكن أمك ! .. أين أمك ؟ »

قالت بولينا للملك إن لديها تمثالا للمرحومة الملكة « هرميونى » قد أتم صنعه آنفا المثال الإيطالى « جوليو رومانو » وقد بلغ من فرط مشابهته للملكة أنه لو تفضل بالذهاب إلى دارها فشاهده ، لحسب أنه الملكة نفسها وليس بتمثالها ، فساروا جميعا إلى دارها .

ولما أرخت بولينا النقاب عن التمثال ريع الملك لما أبصر من فرط مشابهته لزوجته ، وتجددت أشجانه ولبث برهة طويلة لا ينطق ولا يتحرك .

وأخيرا انطلق لسانه فقال « كذلك كانت وقفتها وروعة جلالها حين خطبتها وهى عذراء . ولكن هرميونى لم تكن من كبر السن كما يبدو على هذا التمثال » .

قالت بولينا : لقد تعمد النحات أن يجعل هذه الدمية مثالا للملكة هرميونى كما كانت تكون لو أنها عاشت إلى الساعة ، وهذا أدل على براعته وحذقه . ولكن دعنى أغطى التمثال لئلا تحسب أنه يتحرك » .

قال الملك « لا تغطيه ! ..واحر قلباه ! .. ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . انظر يا كاميلو ألا تكاد تظن أن هذا التمثال حى يتنفس وكأن بعينيه بريقا ولألاء » .

قالت بولينا لأحجبن التمثال يا مولاى . إنى أخشى أن يعزب عقلك من شدة الطرب فتظن التمثال حيا » .

قال الملك : ليتنى أظن ذلك . وليت ظنى صحيح ، بيد أنى إخال أن نسيما يهب على من تلقائها . إنى أريد أن أقبلها فلا تسخروا منى .

قالت بولينا لا تفعل يا مولاى . إن الصبغة الحمراء التى على شفتيها لا تزال رطبة ، فلئن لثمتها لتلوثن شفتيك زيتا . أتأذن فى تغطيتها ؟

قال الملك « كلا بل لتبقينها مكشوفة عشرين عاما . »

قالت « شريدة » وكانت لا تزال منذ أبصرت التمثال راكعة أمامه تتأمل محاسن أمها الفقيدة « ولأبقين مدة هذه العشرين عاما أرنو إلى أمى العزيزة بلا ملل ولا فتور » .

قالت بولينا : « إما أن تدعني أغطى التمثال ، أو تهيئ نفسك لما هو أروع وأدهش ، لأن في استطاعتى أن أجعل الدمية تتحرك وتهبط من نصابها وتمسك بيدك » .

قال الملك وهو يخال أنه فى حلم « كل ما توحين إليها أن تأتيه من حركة يسرنى أن أنظره ، وكل ما تملين عليها أن تلفظه من قول يسرنى أن أسمعه » .

وكانت بولينا قد أعدت فى غرفة مجاورة فرقة من المطربين ، فأمرتهم أن يعزفوا على الآلات ألحانا شجية . وما بدأت الأوتار تترنم حتى شاهد القوم عجبا ، إذا أبصروا التمثال يهبط عن نصابه ويسعى حتى دنا من الملك فطوق جيده بذراعيه ، ثم حرك شفتيه يدعو لزوجه وابنته بالخير والبركة .

ولا عجب ، فإن التمثال لم يكن إلا الملكة نفسها حية سالمة .

والواقع أن بولينا لم تقل حقا حين أبلغت الملك نعى زوجته سالفا ،إذ لم تجد خلاف ذلك وسيلة لإنقاذها من شره . ومنذ ذلك الحين عاشت هرميونى بدار بولينا فى خفية ، وقد أصرت على كتمان أمرها عن زوجها حتى يعثر على ابنتها الضائعة ، لأنها ـ وإن كانت قد اغتفرت له سيئاته إليها نفسها ـ لم تغتفر جنايته على الطفلة البريئة .

ولما أبصر ليونتيز نعمة الله المضاعفة ، إذ رد عليه زوجته وفتاته بعد انقطاع كل منهما ، كاد عقله يذهب من الفرح .

وشكر الملك وزوجته الأمير فلوريزيل لحبه ابنتهما على ما كان يعرف من حقارة شأنها وضعة منصبها ، وشكرا الراعى لعنايته واحتفاظه بطفلتهما ، وشكر « كاميلو » و « بولينا » المولى جل وعلا إذ أبقاهما حتى أبصرا مساعيهما قد أفضت إلى أحسن خاتمة .

وكأن الله أراد أن يتم عليهم نعمته ، فأدخل عليهم فى تلك اللحظة « بوليكسينيز » ملك بوهيميا . فإن هذا الملك لما افتقد ابنه ووزيره ، وكان قد آلى من « كاميلو » شدة التلهف والتحنان إلى وطنه – رجح أن يكون رحل بابنه إلى صقلية ، فشخص إليها ، ووافق حضوره تلك الساعة ـ أسعد ساعات « ليونتيز » .

فشاطرهم سرورهم وغبطتهم ، وغفر لصديقه ليونتيز ما كان من سالف مساءته ، فتوثق ما كان قد رث من حبال مودتهما ، واخضر بينهما الثرى ، واستضاءت ظلمة الوحشة . ولم يجرؤ ملك بوهيميا على القول بأن « شريدة » ليست كفؤا لنجله ، فما هي الآن بتلك السوقية الحقيرة حالبة الأبقار ، ولكن وارثة عرش صقلية .

إكسير الحياة

كان الشيخ « أبو نبيل » العالم الفيلسوف يسكن برجا عاليا بمدينة « بلخ » ، حيث كان يعكف على دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية ، ولم يدخل معمله الكيميائى إنسان قط ، ولكن الفيلسوف نفسه لم يتجنب عشرة الناس – بل على عكس ذلك ، قد كان له سبعة تلاميذ من أشرف بيوتات المدينة ، يتلقون عنه فى أوقات محدودة شتى صنوف العلم ، ما عدا الكيمياء وفنون السحر التى آثر بها نفسه .

ولكنه ذات يوم استدعى إلى غرفته الخاصة تلاميذه السبعة ، فدخلوها متهيبين متعجبين ، على أنهم لم يجدوا بها غير الشيخ أستاذهم قائما وراء منضدة قد صف عليها سبعة أقداح من البلور ، مملوءة بسائل صاف يشبه الماء .

وقال الأستاذ : « أبنائى الأعزاء ، يزعم الناس أنى لم أدخر جهدا فى سبيل استجلاء كل غامضة من أسرار الطبيعة ، وحل كل مشكلة معضلة مما قد أعجز من سبقنى من العلماء والفلاسفة من كل جنس وملة ، هذا ما يزعم الناس وإنه لحق ، وإنه لقصدى ومطلبى منذ غشيت ساحة العلم وطرقت بابه . وحتى ظهر الأمس لم يكن حظى من بغيتى بأكثر من حظ من سبقنى ، ولكنى فى ظهيرة الأمس وفقت إلى مالم يوفق إليه أحد من السلف ، لا أقول إنى وفقت إلى كل ما أنشد وأقصى ما أبتغى ، ولا أدعى أنى اهتديت إلى سر صناعة الذهب أو أنى أوتيت خاتم سليمان أو معجزة عيسى ، إحياء الموتى ، ولكنى وإن كنت لا أستطيع رد الحياة ، لمستطيع استبقاءها وتخليدها – أجل ، لقد اهتديت إلى إكسير الحياة

وسكت الفيلسوف يستوضح أثر كلماته فى وجوه القوم ، فتبين فيها الدهشة العظيمة ، والإيمان المحض بصدق مقاله ، وبارقة أمل فى أنهم ربما أصبحوا شركاء له فى ذلك الاستكشاف الباهر ، وضرب الأستاذ لهم على نغمة ذاك الأمل ، فخاطبهم قائلا « وإنى لمرتاح إلى الإفضاء لكم بهذا السر ، إن شئتم »

فانبعثت من أفواههم صيحة سرور هائلة .

واستأنف الفيلسوف الكلام ، قال :

ولكن اذكروا أن هذا السر ـ كغيره من الأسرار ـ له آفاته كما له محاسنه ، وستدفعون فيه ثمنه ـ وإنه لثمن ـ لو تعلمون ـ باهظ ، فادح . ولتعلمن بعد أن ما أنا ممليه عليكم من الشرائط ليس من افتراضي ووضعي ، وإنما هو ما أوحت به شياطيني ، ثم لا مناص للمودع هذا السر من تنفيذ تلك الشرائط — ولتعلمن أيضا أني لا أريد استثمار هذا السر في تخليد حياتي ، فإني في الحياة جد زاهد :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حـولا لا أبا لك يسأم

وإن ما لقيت من كوارث الدهر ونوائبه ، ليجعلني على اختراع وسائل تقصير الحياة أحرص مني على ابتداع أسباب إطالتها ، وحبذا لو كانت تجاربكم خلال العشرين عاما التي عشتموها ، قد أدتكم إلى عين هذه النتيجة »

لم يكن من بين هؤلاء العشرين شابا إلا من كان يقر ويعترف بأن الحياة إن هي إلا باطل وغرور ، وأضاليل أوهام ، وأضغاث أحلام ، وتعب فوق ذلك وعناء ، وبؤس وشقاء ، هكذا مذهبهم الفلسفي في الحياة ، وتلك نظريتهم ، ولكن شتان ما بين النظريات والسلوك ، ويا بعد ما بين العلم والعمل ، وما أضعف البراهين العقلية إزاء الغرائز الفطرية ، لقد صرح التلاميذ جميعا أنهم مستعدون لقبول كل شرط واحتمال كل عبء واقتحام كل خطر ، في سبيل الاطلاع على ذلك السر الرائع .

« فليكن كما تريدون ، والآن أصغوا إلى الشروط . على كل منكم أن يختار أعتباطا ، ثم يتجرع قدحا من هذه الأقداح السبعة التي لا يوجد إكسير الحياة إلا في واحد منها ، أما لستة لأخرى ففيها من صنوف السموم أقتلها وأرداها ، وأسرعها وأوحاها ، مما لا ينجح فيه علاج ولا يعرف له ترياق ، — فأما الصنف الأول ، فذاك يشعل في الأمعاء حرقة تأتي عليها كالنار المؤججة ، وأما الثاني فيرسل في العروق والأعصاب زمهريرا يسلبها الحياة ، والثالث يقتل بالنوبات الجنونية ، وأخف ميتة من هذه وأروح قتلة ، الصنف الرابع ،فذلك يخر صريعه في الحال ميتا كالمصعوق ، وأهون من ذلك ، الخامس ، فعلى شاربه يسقط نومة لا ينتبه منها أبد الدهر ، فيطيح في هاوية النسيان ، ولكن الشقي من اختار السادس ، فذاك ينسل الشعر عن رأسه ،

ويسقط الجلد عن جسده ، فيتراخى به الأجل فى أوصاب اليمة ، وأدواء معضلة عقيمة ، رمة حية بالية ، وأشلاء معذبة لا فانية ولا باقية ، وأما القدح السابع ، فذا البغية المقصودة ، والأمنية المنشودة ، فمدوا معا أيديكم إلى هذه المنضدة ، وليتناول كل منكم بقوة ، وليتجرع بحرارة وفتوة ،تلك الكأس التى تديرها عليه يد القدر ، فسيجد أن فى أثرها فيه عنوان حظه »

فنظر التلاميذ السبعة بعضهم إلى بعض دهشين مبهوتين ، ثم وجهوا نظراتهم جميعا إلى أستاذهم راجين أن يلمحوا على صفحة وجهه الوقور أدنى شاهد يدل على أنه يمزح فيما يقول ، ولكن صفحة وجهه كانت غفلا من كل علامة أو دلالة ، ثم حولوا أبصارهم أخيرا إلى السبعة الأقداح ، يؤملون أن يستوضحوا بها ولو أدق ميزة وأغمضها ، يعرف بها الإكسير من السموم ، ولكن الأقداح كانت فى ظاهرها سواسية ، كل يحتوى سائلا شفافا ، كالماء صافيا .

وقال الأستاذ « أبو نبيل » :

« ما بالكم متحيرين مترددين ؟ وما يمنعكم من تناول الأقداح ؟ لقد كنت أتوقع أن أرى اللحظة ستة منكم يعالجون سكرة الموت ! »

هذه الكلمة من الأستاذ لم تكن قط مما يشجع أولئك الحائرين أو يغريهم بالإقدام على ذلك الخطر الجسيم ، ولقد مد بالفعل اثنان من أشجعهم أيديهما إلى منتصف المسافة تلقاءا لأقداح ، ولما لم يحذا لباقون حذوهما ،ا مسكا فى ا رتباك وحيرة وأحجما .

وأخيرا قطع أحدهم سلك هذه السكتة الطويلة المربكة ، بقوله :

« لا تحسبن أيها الأستاذ ، أنى شخصيا أعلق أدنى أهمية على هذه الحياة التافهة ، أو أقيم لها وزنا ، ولكن والدة لى شيخة ضعيفة قد نيطت حياتها بحياتى ، أخاف عليها الضيم من بعدى »

وقال الثانى :

« ولى أخت عانس أكفلها ، فإن أمت ، فيا ليت شعرى من يكون لها بعدى »

وقال الثالث :

« وإن لى لصديقا مظلوما ما له سواى من معين ولا ناصر ، وما كان من حقه على أن أخذله بموتى »

وقال الرابع :

« ولى عدو مبين ما ينبغى لى أن أموت حتى آخذ منه بثأرى »

وقال الخامس :

« إن حياتى بأسباب العلم معقودة ، فهل كان لى أن أضحى بها من قبل أن أسبر الأعماق من بحار الأقاليم السبعة ؟ »

وتلاه السادس قائلا :

« وهل كان لى أن أضحى بها ، من قبل أن أناجى سكان القمر ؟ »

وقال السابع :

« أما أنا فلا أم لى ولا أخت ، ولا صديق ولا عدو ، ولم أولع بالعلوم ولوع البعض من زملائى ، ولكننى أشد كلفا ، وأحد شغفا بروحى ، على حد قول القائل « يا روح ما بعدك روح ! » ومن أحب من هذه الحياة شيئا ، فليس أحب إلىّ من جلدى هذا ، إنه لجميل فى مرآة عينى ، بض ناعم تحت كفى ، وإنى له ـ مهما فرط الناس فى جلودهم — لحافظ » .

فقال الفيلسوف :

« والخلاصة إذن أنه ليس فيكم من يريد أن يخاطر بحياته ابتغاء كأس الخلود »

فظل الفتيان السبعة فى خجل صامتين ، لا يستطيعون إزاء تلك التهمة إقرارا بها ولا إنكارا .

ثم أعملوا الفكرة يتلمسون من ذلك المأزق مخرجا .

وقال أحدهم :

« ما قولك فى سحب قرعة على الأقداح ، وتسليم الأمر للمقادير ؟ »

قال الأستاذ :

« لست أعارض فى ذلك »

فجاء السبعة الفتيان بسبع ريشات متفاوتة الأطوال ثم بدأوا يسحبونها كالعادة المتبعة ، فوقعت أقصرها فى يد ذلك الشاب الذى كان قد اعتذر بأن له أما يكلؤها ويرعاها .

فاقترب من المنضدة رابط الجأش ، ثم مد إلى منتصف المسافة ، ولكنه التفت فجأة إلى حامل الريشة التالية ، ذاك الذى اعتذر بأخته ، فقال له :

« قد تعلم أن صلة الابن بأمه آكد وأوثق ، ثم أطهر وأقدس ، من صلة الأخ بأخته ، أليس فى الحق أن تسبقنى أنت إلى احتمال أولى صدمات هذه المخاطرة ؟ »

فأجاب المخاطب قائلا :

« إن صلة ما بين الابن وأمه ، هى على شدة متانتها وقداستها ، وشيكة الزوال ، بطبيعة الحال ، فسرعان ما تفصم وفاة الأم عروتها ، على حين أن علاقة ما بين الأخ وأخته قد تدوم دهرا طويلا فكان حقا عليك - إذا - أن تكون أنت البادىء بالمخاطرة »

فصاح الأول قائلا :

« تالله ما كنت قط أتوقع سماع مثل هذه السفسطة من أحد تلاميذ الفيلسوف « أبو نبيل » ! أمثل قولك ذاك يقال فى أواصر الأمومة ؟ »

فقال الستة الآخرون :

« دعك من هذا العبث والهراء ، نفذ شروط القرعة ، وإلا فانسحب بسلام »

على أثر هذا الإغراء والإلحاح أدنى الفتى يده من المنضدة فقبض على أحد الأقداح ، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى خيل إليه أنه يلمح فى السائل شيئا بشع المنظر كريه اللون ، يميزه - فى خياله - عن صفاء سائر الأقداح ونقاوتها ، فسرعان ما أعاد القدح إلى مستقره ، ثم قبض على آخر ، وفى تلك اللحظة ، انقض على السبعة الفتيان من حيث لا يدرون - شواظ من لهب ، فصعقوا جميعا ، وخروا إلى أرض المكان صرعى ، لا حس بهم ولا حراك .

ولما ثاب إليهم شعورهم ، ألفوا أنفسهم خارج منزل الفيلسوف ، وإنهم لمغمورون مبهورون من هول تلك الصدمة ،يترنحون كالسكارى وما هم بسكارى ، ثم إنهم تعاقدوا على إبقاء السر بينهم مكتوما، وعلى ذلك انصرفوا إلى ديارهم بأسوأ حال من الذلة والصغار ، والخزى والعار .

ولما كان كتمان السر بين سبعة يوشك أن يكون من المحال ، بل كان :

كل سر جاوز الـ إثنين شـــاع

فإنه لم يمض أسبوع حتى أصبح ذلك السر معروفا لدى معظم سكان المدينة ، وآخر من علم به السلطان .. ثم لم تك إلا هنيهة حتى أحدق جنود الحرس والشرطة بمنزل الأستاذ « أبو نبيل »للقبض عليه ومصادرة « الإكسير » . ولما أبى الأستاذ أن يأذن لهم ، اقتحموا عليه الدار وحينما دخلوا حجرته ألفوه على حال هى أشد إفصاحا وأوضح دلالة على فرط احتقاره لذلك الإكسير من كل لفظ ومنطق ـ ألفوه ميتا فى مقعده ، وعلى المنضدة أمامه السبعة الأقداح ستة لا تزال ملأى ، والسابع فارغ ، وفى يده رقعة عليها الكلمة :

« سبعين عاما سلخت فى طلب العلم والتماس الحقيقة ، وهأنذا أترك للعالم تراثي وثمرة مجهودي وما هى إلا ستة أصناف من السم وقد كان فى مكنتى أن أعززها بسابع ، أشد منها فتكا ونكالا ، وأعنى به إكسير الحياة ، وسيلة الخلود فى هذه الدنيا التى كلها شقوة وعذاب ، ومحنة ومصاب ، وآفات وأوصاب ، وعلقم وصاب ، ولكنى أشفقت من هذا الإكسير « سابع السموم وأخبثها وأنكاها » على ابن آدم فحسبه من الكرب والبلاء ما يكابد فى حياته القصيرة ، وأى خير ـ هداكم الله ـ فى جعل الألم سرمدا والبؤس والعناء مخلدا ، فلقد جنبت ابن آدم ذلك الإكسير وكفيته شره رحمة به وحنانا ، ثم أودعته جوف مخلوق آخر لن يكون عليه منه أدنى شر ولا آفة .

فاكتبوا يا رعاكم الله على قبرى :

« هنا يرقد الرجل الذى أبى أن يخلد على الإنسان بؤس الحياة وشقاءها »

فنظر الجند بعضهم إلى بعض ، يحاولون استجلاء ما غمض من معانى هذه الكلمات .

وإنهم لكذلك إذ راعهم صرخة هائلة من الغرفة المجاورة ، وإذا بقرد جسيم قد طلع عليهم يتوثب وينتزى ، وبه من شدة المرح والنزق والنشاط ما أثبت فى عقائدهم أن الفيلسوف المتوفى ، مدفوعا بعامل المقت للحياة البشرية والإصغار لذخائرها وكنوزها والهزء والسخرية بكل ما فيها قد آثر ذلك القرد بإكسير ، فسقاه كأسه إلى آخر صبابة .

تجربة

دعا الشيخ المسن ، العالم الحكيم ، الدكتور هيديجار أربعة شيوخ كبار من أصدقائه ـ ذات مرة ـ إلى مكتبة ، — ثلاثة رجال شيب وامرأة شمطاء ، وكان الأربعة ممن أناخ عليهم الدهر بكلكله ورماهم بخطوبه وأرزائه ، وكانت كبرى مصائبهم أنهم ما برحوا على قيد الحياة ،وأن المنون لم ترحهم من نكد العيش وطول البلاء ، — فأما أحدهم وهو المستر « مدبورن » فقد كان فى عهد رخائه تاجرا مثريا ، ولكنه خسر ثروته فى مضاربة خرقاء ، ثم أصبح لا يفضل الشحاذ المتسول بكثير ، — والثانى وهو الكولونيل« كيلو جرو » أضاع صفوة عمره فى المعاصى والمفاسق وأباد فى سبل اللذات والشهوات عافيته وثروته وأصبح مبتلى بما يسببه الانهماك فى اللهو والترف من صنوف الأمراض والعلل . وثالثهم المستر « جاسكوين » كان فى زمانه سياسيا سيىء السمعة بغيض الذكر مستنكر السيرة ، ثم سقط ونبذ فى زوايا الإهمال وأعاضه الله من سوء السمعة خمول الذكر وغموض الشأن ـ أما الرابعة وهى الأرملة « ويشرلى » فيروى أنها كانت فى زمنها آية فى الجمال ، ولما أفل نجمها ، وركدت ريحها ، بعد ذهاب حسنها وملاحاتها ، احتجبت عن الأبصار وعاشت فى عزلة . هذا ، ولقد كان الثلاثة الرجال آنفى الذكر من أكبر عشاق تلك المرأة سالفا ، وكان ولعهم بها وهيامهم قد بلغ حالة أوشكوا معها أن يقتل بعضهم بعضا .

وقال رب البيت الدكتور « هيديجار » وأومأ إلى ضيوفه الأربعة بالجلوس :

« إخوانى الأعزاء ، إنى دعوتكم الآن لتعينونى على إجراء تجربة صغيرة — إحدى هذه التجارب التى أحاول بها قتل الوقت والتسلية فى خلواتى بمكتبى هذا »

وكان مكتب الدكتور « هيديجار » من أعجب المشاهد وأغربها ، كان حجرة مظلمة عتيقة النمط ، مطرزة الأركان والحواشى بنسيج العناكب ، على أنحائها

وأرجائها نثار ـ لا من النضار ـ ولكن من الغبار ، مبطنة الجدران بقماطر الكتب والأسفار ، وعلى القمطر الأوسط تمثال بقراط ، ويزعم أن الدكتور « هيديجار » كان لا يزال كلما اعترضته مشكلة أو اعتاصت عليه تجربة في سبيل صناعته استوحى تمثال بقراط المومي إليه واستفتاه فيما يصعب عليه وأعضل . وفى أظلم أركان الغرفة صندوق من البلوط ضيق مستطيل ، منفرج الباب ، يلمح فى باطنه هيكل عظمي ، وفيما بين قمطرين مرآة تربة الصفحة ، صدئة الإطار ، ومما يحكى عن هذه المرآة أن أرواح جميع من مات من مرضى الدكتور كانت تكمن فى دائرتها وكانت تتراءى للدكتور وتحدق فى وجهه كلما التفت نحوها ، وكان الجانب المقابل من الحجرة مزدانا بصورة كبيرة تمثل فتاة حسناء فى حلل من سندس خضر وإستبرق قد طفىء بهاؤها ورونقها كما طفئت بهجة محياها ونضارته . وكان الدكتور « هيديجار » منذ نيف وخمسين عاما على وشك الزواج بهذه الغانية ، ولكنها أصيبت ليلة القران بشكاة فتناولت جرعة من بعض أدوية الدكتور ـ وكانت سما زعافا ـ فماتت على منصة الزفاف ليلة العرس ! وأعجب ما هنالك من العجائب ، كتاب كبير ضخم مغلف بالأدم الأسود ذو مشابك عظيمة من الفضة ، ولم يكن على غلافه كتابة ولم يدر امرؤ ما عنوانه ، ولكنه كان يعرف أنه كتاب سحر ، وحدث ذات مرة أن خادمة الدكتور بينما كانت تنظف الحجرة فرفعت الكتاب المذكور لتزيل ما ركبه من خيوط العنكبوت ، تحرك الهيكل العظمى وتقعقع فى صندوقه وبرزت صورة الحسناء من إطارها ، فتقدمت خطوة على أرض الحجرة ، وأطل من باطن المرآة طائفة من وجوه شاحبة ، وهز تمثال بقراط رأسه وعبس ، وقال للخادمة « أمسكى ! »

كذلك كان مكتب الدكتور « هيديجار » . فى ذلك اليوم الصائف الذى جرت فيه هذه القصة كان فى منتصف الغرفة مائدة مستديرة عليها إبريق من البلور بديع الشكل والصنعة ، وكان ضوء الشمس ينبعث من سجوف الدمقس القانى ،فينصب على إبريق البلور ويخترقه ، ثم يستفيض ناعم الشعاع ، غض الرونق ، لين السنا ، على وجوه أولئك الشيوخ الشاحبة الكاسفة ، وكان على المائدة أيضا أربعة أقداح .

وقال الدكتور هيديجار مكررا سالف قوله :

« هلا أعنتمونى على إجراء تجربة من أعجب التجارب ؟ »

فلما سمع الضيوف ذكر التجارب لم يذهب بهم الظن إلى أبعد من أن صاحبهم إنما يريد اختبار نسيج من بيوت العنكبوت تحت المجهر أو إعدام فأر فى آلة تفريغ الهواء أو ما شاكل ذلك من تافهات التجارب ، مما كان لا يزال يضايق به ضيوفه ويعذب زواره ، ولكنه لم يفعل ذلك هذه المرة ،بل عمد إلى كتاب السحر الذى أشرنا إليه آنفا ثم عاد به ، ففك مشابكه الفضية وتناول من بين صحائفه المرقومة بالحروف السوداء وردة (أو بعبارة أصح « ما كان في غابر الزمان وردة » وقد استحالت حمرته وخضرته صبغة سوداء مسودة » وكأنها فى يده تكاد أن تتفتت فتساقط ترابا .

وقال الدكتور وتنفس الصعداء :

« هذه الوردة ، هذه الزهرة الذاوية البالية ، كانت فى أبهى نضارتها منذ خمسة وخمسين عاما ، يوم أهدتها إلىّ خطيبتى « سيلفيان » صاحبة الصورة المعلقة هنالك ، لأتجمل بها ليلة زفافنا ، وما برحت منذ ذلك العهد مكنونة فى طيات هذا السفر القديم ، خمسا وخمسين حجة ، فهل ترون فى الإمكان أحياءها وردها إلى البهاء والنضرة ؟ »

قالت العجوز « ويشرلى » بهزة إنكار من هامتها الشمطاء :

« ما هذا الهذر والهراء ؟ أقرب والله من ذاك رجعة الشباب ونضرة الشباب ، إلى عجوز مثلى ! »

فقال الدكتور :

« تأملوا ! »

وكشف الإبريق والقى الوردة الذابلة فى الماء الذى به ، وهنا بدأ يبدو على الوردة تغيير عجيب ، إذ تحركت أوراقها المنسحقة الجافة واكتست صبغة أرجوانية متزايدة الحمرة ، كأنها تنتعش من رقدة الموت ، وأخضر عودها النحيف وفروعه المورقة المشتبكة ، وهنالك بدت الوردة يانعة ناضرة كساعة أهدتها الفتاة « سيلفيا » إلى عاشقها منذ خمسة وخمسين حولا ، ـ غضة ناعمة ، لم تستتم تفتحها ، إذ كان بعض أوراقها لا يزال مضموما إلى صدرها الخضل الرطب المحلى بلؤلؤتين

أو ثلاث من فرائد الطل تشرق وتتلألأ !

فبلغ العجب والدهش من الضيوف أقصاه ، ولم يمهلهم الدكتور أن يعلنوا عجبهم ، فقال :

« أما سمعتم قط بما يسمونه« ينبوع الشباب » - ذلك الذى ذهب الرحالة الأسبانيولى العظيم « بونس دى ليون » فى استكشافه منذ ثلاثة قرون ؟ »

قالت العجوز :

« وهل عثر به الجوالة المذكور » ؟ أجاب الدكتور :

« كلا ! لأنه لم ينشده فى مكانه ، إن ينبوع الشباب هذا كائن فى جنوبى شبه جزيرة « فلوريدا » على مقربة من بحيرة « ماكاكو » تستر منبعه عن الأبصار بظلالها الوارفة المتكاثفة طائفة من عظام الدوح العادى ، وهذه الأشجار العتيقة قد بقيت - بفضل ما يتسرب إلى جذورها ، من ماء ذلك الينبوع - فى عنفوان الشباب ونضرة الغضارة الآلاف المؤلفة من السنين ، ولى صاحب يعرف فرط شغفى بكل ذى ندرة وغرابة فبعث إلى من ماء ذلك الينبوع بما ترونه فى هذا الإبريق »

فقال الكولونيل « كيلوجرو » وهو لا يكاد يصدق مقالة الدكتور ويحسبها من قبيل شعوذة الحواة :

« حسبك ، حسبك ! وماذا عسى أن يكون من أثر ذلك الماء فى جسم الأنسان ؟ »

قال الدكتور :

« سترى بنفسك وتحكم ، وسأهبكم من هذا السائل العجيب ، ما يرد عليكم رونق الشباب وغضارته »

وفى خلال كلامه كان يملأ الأقداح الأربعة المصفوفة على المائدة من ماء ينبوع الشباب ، وكان ذلك الماء مشبعا بنوع فوار من الغاز ، إذ جعل أثناء انصبابه يتصاعد من جوفه فى الأقداح فقاعات صغار تسمو إلى أعلاه ثم تنبسط على صدره كسلاسل الذهب وقلائد العقيان ، ولما سرى منه إلى أنوفهم عبق المسك الفتيت ، لم يستبعدوا أن يكون ذا خواص شافية ، وآنسوا - على فرط شكهم فى

سألهم أن يصبروا قليلا ، وقال :

« لقد طالما جربتم الحياة أيها الإخوان ، ويقيني - بعد ما حلبتم الدهر أشطره ، وذقتم من عسله وصابه - أنكم إن عدتم إلى شرخ الشباب واستقبلتم الحياة من أولى مراحلها بفضل هذا الماء العجيب - لن تضلوا سواء السبيل كما ضللتموه أول مرة ، ولن تقعوا فيما كنتم وقعتم فيه قبل خبرتكم وكثرة غروركم ، من السقطات والزلات ، وأن تكونوا بفضل ما قد أورثتكم الحنكة والتجربة من الحكمة والدهاء خير قدوة للنشء وخير مثال صالح لهذا الجيل فى حسن السيرة ، وجمال المذهب ، وأصالة الرأى ، وكمال التقوى »

فلم يجب الضيوف على وصية الدكتور بأكثر من ضحكة لينة خفيفة مؤداها أنه لن يكون منهم إلا ما سألهم الدكتور من الصلاح والاستقامة بعدما ذاقوا من سوء عاقبة الطيش والنزق ، وعقوبة الضلال والغواية ، وعندئذ انحنى لهم الدكتور وقال :

« اشربوا إذن من ينبوع الشباب وإكسير الحياة باسم الله وبركته ، وشد ما يسرنى أنى اخترت لتجربتى هذه خير أهل لها وأكفأ ، اشربوا على الطائر الميمون وسعد الطالع ! »

ورفع الجماعة الأكواب بأيد مشنجة من الهرم رعشة ، واحتسوها إلى آخر صبابة ، وسرعان ما أشرق على وجوههم سنا برقها اللماع ، ونورها الوضاح ، وبدلت وجناتهم الذابلة نضرة النعيم من شحوب الفناء ، وحمرة العافية من صفرة الموت ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وخيل إليهم أن فى ذلك الشراب نفثات سحر مبين تمحو من جباههم ما قد طالما نقشت عليها يد الدهر من سطور الهرم والبلى ، ومدت الأرملة « ويشرلى » كفها إلى قناع رأسها فأصلحته وعدلته ، وقد بدأت تشعر ثانية أنها امرأة تستحب وتشتهى بعد إذ هى حرض هالك ورمة بالية .

وصاحوا جميعا متلهفين :

« زدنا من هذا ، زادك الله من فضله ! لقد دنونا من الشباب مرحلة ، ولكنا لم نصل بعد إلى شرخه وعنفوانه ، عجل إلينا بإكسير الحياة ! زدنا ثم زدنا ، زادك الله بركة ! »

قال الدكتور وهو يتأمل أثر التجربة ومفعولها وسيرها فى هدوء فلسفى :

« مهلا ، مهلا ، أفلا يسركم أن تعودوا إلى الشباب فى نصف ساعة؟

ثم ملأ الأقداح ثانيا ، وبينما الحبب لا يزال يتلألأ على حافتها ، اختطفها الأربعة الضيوف كخطف البرق ، واحتسوها دفعة واحدة ..

يا لله ! ما هذا الأثر السريع والانقلاب المدهش .. أحقيقة أم خيال ، أم مس من خيال ، أم أوهام ، أم أضغاث أحلام ! لقد صنع هذا الشراب بجوارحهم والحواس ، مالا تصنع الكيمياء بالرصاص والنحاس ، إذ صفت منهم العيون وبرقت الأحداق ، وشحذت الشهوات والأذواق ، واسود جانب من شيبهم وبلغوا سن الرجولة المكتملة ، واستوى منهم حول المائدة أربعة شخوص فى سن الأربعين .

وقال الكولونيل « كيلوجرو » صائحا ورنا إلى الأرملة :

« لله أنت يا سيدتى « ويشرلى ! » ما أزهى حسنك ، وأبهى جمالك ! »

وأدمن النظر وأدام كرة الطرف إلى محياها ، وإن ظلال الهرم والشيخوخة لتتساقط عنه كما تنجاب ظلمات الليل عن عمود الصباح ! فنهضت الأرملة وهرعت إلى المرآة وهى تخاف أن ينعكس لها على صفحتها وجه عجوز شمطاء ، ولكنها عادت قريرة العين مثلوجة الأحشاء ، أما الثلاثة الرجال فقد كانوا فى نشوة كأن ما احتسوه من ذلك السائل العجيب كان فيه مادة مسكرة ، أو كأن ما ألقى عن عواتقهم من أعباء السنين قد تركهم من شدة النزق والخفة فى مثل نشوة الراح ، فأما السياسى المستر جاسكوين فقد تناول طائفة من المسائل السياسية وأقبل يسح بالخطب الرنانة ويهضب ، ويترسل فى مناهج الكلام ويسهب ، وطفق يخوض فى ذكر الوطنية والمفاخرة القومية ، والحقوق الشعبية ، وآنا يطرق موضوعات خطرة ومسائل مخوفة ، وإذ ذاك يغض من صوته ويخافت من خطابه ، ويهمس بالقول همسا ، وبه من شدة الحذر والحيطة ما يظل معه ضميره نفسه جاهلا بأسرار قوله ، وآونة يتكلم بألفاظ موزونة ، بصوت غضيض خاشع كأنه ماثل فى حضرة السلطان . وأما الجندى ، الكولونيل « كيلوجرو » فقد كان أثناء ذلك يصدح بنشيد حربى ، وينقر على الكأس توقيعا ، وعيناه ترتعان

كان أثناء ذلك يصدح بنشيد حربى ، وينقر على الكأس توقيعا ، وعيناه ترتعان في محاسن المسز « ويشرلى » . وأما التاجر المستر « مدربون » فقد كان متحيرا فى حسبة طويلة عريضة ، يضرب موكبا جرارا من الأرقام فى مثله ، بمناسبة مشروع خطير يرمى إلى توريد الثلج إلى جزر الهند الشرقية بطريقة ربط قطيع من الحيتان إلى هضاب الثلج القطبية ليجرها - كما تجر الثيران ثقال المركبات - من القطب الشمالى إلى المناطق الاستوائية !

وأما المسز « ويشرلى » فقد وقفت إلى المرآة تومىء إلى خيالها بالتحيات ، وتومض له بالابتسامات ، وتفديه بالأهل وبالمال وبالروح على اعتبار أنه أحب ما فى الوجود إليها ، ثم لصقت وجهها بالمرآة لتبصر هل زالت منه فعلا غضون الهرم وتجاعيده ، وهل تمزق فعلا قناع المشيب عن رأسها ، وذابت ثلوج القتير ، ثم استدارت فى خفة ورشاقة . وعادت إلى المائدة تمرح وترقص ، ثم صاحت :

« عزيزى الدكتور ، تفضل على بكأس أخرى ! »

فقال الدكتور فى رقة وحفاوة :

« كما تشائين يا سيدتى ، انظرى ! لقد ملأت لكم الكئوس »

وفعلا كانت الكئوس مترعة بإكسير الحياة كأنما الحبب فيها حصباء در على أرض من الذهب ، وفى تلك اللحظة كانت الشمس تجنح للغروب وقد دنف ضوؤها ، ومرض شعاعها ، فأظلم فضاء الحجرة ، ولكن إبريق الإكسير انبعث منه إذ ذاك وميض لين غض لطيف كنور القمر ، استقر على وجوه الضيوف الأربعة ، وعلى وجه الدكتور ، الشيخ الوقور ، وكان مستويا على كرسيه الفخم الرفيع ، عليه من سيما الهيبة والوقار ما هو خليق أن يكلل هامة « الزمان » - سلطان الأكوان - ذلك العزيز الجبار - الذى دانت لسطوته البرايا ، إلا هؤلاء الخمسة الأفراد الذين أتيح لهم فى تلك الساعة أن يخلعوا طاعته ، ويصدعوا ربقته .

وما كاد الضيوف يشربون أقداحهم حتى اشتعلت فيهم جذوة الصبا ، وتأججت جمرة الشباب ، وأصبحوا وإنهم لفى حلل الحداثة يرفلون ولم يبق فى أذهانهم من ذكريات الهرم والمشيب وعلله وأدوائه ، ومحنه وأرزائه ، إلا شبح

والابتهاج ، وكأن ما قد كان لم يك كان ! وبهجة الشباب الناضرة - تلك التى بدونها لا تبصر العين من هذا الوجود سوى معرض صور شاحبة ، ألوانها ذاهبة - تلك البهجة - بهجة الشباب ردت إليهم وأفاضت لهم على مشاهد الكون روعتها الباهرة ، وفتنتها الساحرة ! وخيل إليهم كأنهم أناس ولدوا من جديد فى دنيا أنشئت من جديد ! فصاحوا جميعا :

« نحن شبان ! نحن شبان ! »

وكذلك كانوا شبانا يغلى فى عروقهم ماء الشباب وتكاد تذهب بعقولهم حمياه ، لقد أوشكوا أن يجن جنونهم ، وكان أول ما دفعهم إليه نزق الشباب وغروره ، أن يسخروا من الشيخوخة ويهزأوا من الهرم الذى كانوا - قبل لحظة - من فرائسه وضحاياه ، فأقبلوا يضحكون من ملابسهم العتيقة الطراز الفظيعة الشكل ، التى لا تليق بمن كان مثلهم فى شرخ الشبيبة وريعان الصبا ، وما كان أعلى ضحكات « العجوز - الصبية » من جبتها الفضفاضة وعمتها الكبيرة ، ثم أقبلوا يقلدون عاهات الشيخوخة وآفاتها ، فانبرى أحدهم يحجل فى أنحاء الغرفة ويعرج يحكى مشية المصابين بداء النقرس ، وتناول آخر منظارا فوضعه على قصبة أنفه وأقبل ينظر فى صفحات كتاب السحر ، كأنه شيخ هرم ضعيف البصر ، وجلس ثالث على كرسى وجعل يقلد الدكتور « هيديجار » فى بأوه وجلاله ، ثم أقبلوا يتصافحون ويتواثبون ، وصمدت الأرملة - إن كان يصح أن تسمى أرملة مثل تلكم الحسناء الفاتنة - إلى الدكتور فقالت له على سبيل المداعبة الخبيثة :

« أيها الدكتور ، يا حبيبى الهرم المتهدم ، قم فارقص معى »

وهنا أرسل الأربعة الرجال ضحكة عالية صاخبة كأنهم يتخيلون غرابة منظر الشيخ المسن وهو يرقص .

وأجابها الدكتور قائلا :

« معذرة يا سيدتى ، إنى شيخ كبير وليس يحسن الرقص أمثالى . ولك عنى مندوحة فى أحد هؤلاء الشبان ، ممن يعد الرقص معك غنما كبيرا ونعمة جلى »

وهنا صاح الكولونيل « كيلوجرو » :

« ارقصى معى يا صديقتى كلارة »

فصرخ المستر « جاسكوين » قائلا :

« كلا ! بل معى ترقصين يا كلارة »

فضج المستر « مدبورن » قائلا :

« لا معك ولا معه ، بل معى أنا ، لقد وعدتنى أن تهبنى يدها للزواج منذ خمسين عاما »

وكذلك أحدقوا بالمرأة إحداق السوار بالمعصم ، يتجاذبونها كما تتجاذب السباع الفريسة ، فواحد ينهال عليها شما ولثما ، وثان يوسعها عناقا وضما ، وثالث يعبث بشعرها الوحف نشرا ولمسا ، والمليحة الحسناء وسطهم تحمر خجلا وتصفر وجلا وتذود عن نفسها وتدفع وتكف عن ثمار حسنها الأكف وتقدع ، نافرة آنسة باسمة عابسة ، تنفح وجوههم بأنفاسها العاطرة وتصمى قلوبهم بألحاظها الفاترة ، تحاول الخلاص وما من خلاص ، وتريغ الإفلات ولات حين مناص .

لقد كانت ـ وربك ـ أبدع صورة تمثل اقتتال الرجال على المرأة ، وتفانى الرجولة والفتوة فى طلب الجمال ، وتناحر الشباب والقوة ، على مذبح الفتنة والدلال ، ولكن العجب العجاب أن المرآة كانت – لأمر ما – تمثل هذا المنظر الجميل فى صورة بشعة شنعاء ـ صورة ثلاثة شيوخ يتكافحون على عجوز شمطاء .

هذا تمثيل المرآة ، وكذبت المرآة ! لقد كانوا فتيانا حسانا ، يتلهبون عشقا ، ويتضرمون شبقا ، وقد سعرت الفتاة فيهم بدلالها جنون الحب ، ومن الحب جنون مستعر ، وأوقدت فيما بينهم نار الغيرة ، فتبارزوا ، وتناجزوا .

وتواثبوا يتقـــاذفون بأعين فى لحظها جمر الغضا المتسعر

ثم نشبت بينهم حرب ضروس ، واشتد الكفاح والصراع ، وانقلبت المائدة وسط هذه المعركة الطاحنة ، فانحطم إبريق الإكسير وإهريق ماء الشباب النفيس يجرى على أرض المكان جدولا مشرقا رقراقا متألقا فبلل تياره البراق جناح فراشة هرمة بالية ، كانت قد نفذت إلى داخل الغرفة ثم وقعت على أرضها لتموت ، فما هو إلا أن مسها الإكسير حتى انتعشت وعاشت وأقبلت تتوثب وتتنزى حتى وقعت على هامة الدكتور الشهباء .

وصاح الدكتور :

« على رسلكم أيها الإخوان ! كفوا وأمسكوا ، إنى أحتج على هذه الخطة الخرقاء ، والسيرة النكراء ، أنسيتم ما بايعتمونى عليه من تقى وصلاح ؟ »

فوقفوا ساكنين ، ينتفضون انتفاضا ، وكأن « الزمان » الأشيب القديم قد بدأ يهيب بهم ليسترجعهم من قمة الشباب الزاهية ، إلى وهدة المشيب الداجية ، وظلوا واقفين ينظرون إلى الدكتور « هيديجار » يحمل على كفه الوردة العتيقة ، وكان قد التقطها من بين أنقاض الإبريق وجذاذه ، وأومأ الدكتور إلى ضيوفه الأربعة فاستووا فى مجالسهم .

وصاح الدكتور واستعرض الوردة فى ضياء الشفق :

« أسفى عليك أيتها الوردة ! لقد عاودك النحس ، واستأنف البلى إليك دبيبه والفناء مسراه ! »

وقد كان ذلك إذ جعلت الوردة تتقبض وتتقلص ، حتى صارت من الذبول والجفاف كما كانت حين ألقى بها الدكتور فى الإبريق ، وقال الدكتور وهو ينظر إلى الوردة الذابلة :

« تالله ما أزرى بها عند ذبولها ، ولاغض منها جفافها ، وما أحبها إلى جديدة وبالية ، وما أعزها على ناضرة وذاوية ! » وفيما هو يتكلم سقطت الفراشة من فوق رأسه فانية ، وانتفض الضيوف الأربعة ثانيا ، ودبت فى أبدانهم وأرواحهم قشعريرة ونظر بعضهم إلى بعض وخيل إليهم أن كل لحظة تمر تختلس معها من محاسنهم ملحة وتسلب من ملاحتهم طرفة ، وتترك مكان ذلك عيبا وشينا ، أحقا كان ذاك ؟

وصاحوا يندبون :

« أهكذا زال الشباب وعاد المشيب ؟ »

وحقا كان ذلك ! لقد كان لماء الشباب أثر ، ولكنه أثر زائل ، فهو كالخمرة أشد ما تكون نشوتها أقربها من الزوال . أجل لقد عاودهم الهرم والشيخوخة وزفرت الأرملة زفرة حارة وغطت بيديها المعروقتين وجهها المغضن ، وتمنت لو يسدل عليه الكفن للتو والساعة .

وقال الدكتور « هيديجار » :

« إى وربى ، أيها الخلان ، لقد عاودتكم الشيخوخة على حين قد أهريق ماء الشباب من إبريقه ، فما ثمت إلى رجعة الشباب من حيلة ، بيد أنى على ذاك غير آسف ، ويمينا لست بكاذب لو أن ينبوع الشباب يتدفق بفناء دارى لما حدثتنى النفس أن أرشف منه رشفة ، فحسبى والله ما شاهدت من أثر عودة الشباب فيكم ، لقد ألقيتم علىّ درسا قيما وعظة بالغة !

تأديب زوجة

كانت « كاثرين » كبرى بنات المدعو « بابتيستا » من أعيان « بادوا » (بإيطاليا) سيئة الخلق نارية المزاج صخابة بذيئة اللسان وقد اشتهرت بذلك عند أهل المدينة طرا حتى أطلقوا عليها كاثرين الشريرة » فتناذرها فتيان البلدة وتفادوا منها حتى أصبح من المحال أن يخطبها للزواج من بينهم أحد ، وبذلك كسدت سوقها وسوق أختها الصغرى المهذبة السمحاء « بيانكا » إذ امتنع أبوهما أن يبدأ إلا بتزويج الكبرى .

واتفق أن ثريا يدعى « بتروشيو » قدم مدينة « بادوا » لينتقى من بين أوانسها زوجة فبلغه فيما بلغه نبأ « كاثرين » الشريرة فأصر على طلبها للزواج لفرط جمالها وثروة أبيها ، فأما سوء خلقها فلم يعبأ به وضرب به عرض الحائط إذ قال فى نفسه « لأ نتزعن عقرب الشر من طباعها ولأردنها سمحة القياد مذعانا » ولقد صدق فى قوله حيث كان أوتى من الحكمة والدهاء والحزم والعزم وسعة الحيلة والتدبير ما هو كفيل بما نوى .

وكذلك مضى « بتروشيو » إلى « بابتيستا » وخطب إليه ابنته « كاثرين » فأجاب طلبه فرحا مسرورا ، ثم أذن له أن يلقى الفتاة ليزدلف إليها ويقترب . قال « بتروشيو » ما أشد شوقى للقياها ، لقد رغبنى فيها ما بلغنى من حسن خلقها وسهولة عريكتها وسلاسة مقادتها وحلاوة لسانها » . فدهش « بابتيستا » من كلام ضيفه وعز عليه أن يغشه بكتمان الحقيقة عنه فقال له على الرغم منه « سيدى لا أخدعك ، إن ابنتى لعلى نقيض ما بلغك ، إنها أسوأ النساء خلقا وأفحشهن لسانا و .. » وهنا دخل عليهما معلم الموسيقى هاربا من « كاثرين » يتألم ويتوجع قال « سيدى أغثنى أدركنى ، لقد ثارت على الآنسة « كاثرين » لمراجعتى إياها فى نغمة أخطأت توقيعها فقذفتنى بالعود فحطمت رأسى ! »

فالتفت الوالد إلى ضيفه قائلا « ما رأيك ؟ وكيف ترى أخلاقها ؟ »

فأجاب بتروشيو :

« هذا وأمثاله يزيدنى بها شغفا وإليها اشتياقا »

فأجاب بتروشيو :

« هذا وأمثاله يريدنى بها شغفا وإليها اشتياقا »

قال بابتيستا لقد أعذر من أنذر . وأرانى بعد قد أخليت نفسى من كل تبعة ، فعليك وحدك مسئولية فعلتك ! »

وعلى هذا مضى السيد إلى ابنته فأبلغها الأمر وسألها أن تذهب إلى ذلك الخاطب لتسمع خطبته .

ولما خلا « بتروشيو » إلى نفسه جعل يفكر كيف يستقبل الفتاة وبأى لهجة يحاورها وبأى أسلوب يناضلها فقال فى نفسه « الأمر والله أهون مما يتخيل ، سأبثها شوقى ووجدى لأول وهلة ، فإذا بدهتنى بالشتم والسباب قلت لها ما أعذب لفظك وما أرق عبارتك ، لكلامك فى أذنى أشجى نغمة من الكروان وأحلى رنة من العيدان . » وإذا عبست وتجهمت قلت « ما هذا البشر والطلاقة ، إن رونق محياك ليخجل الأقمار . ويطفئ جمرة النهار . وإذا سكتت قلت « ما هذه الفصاحة والبيان ، والمنطق المزرى بقلائد اللؤلؤ والجمان . »

وبينما هو فى ذلك دخلت عليه « كاثرين » تميس تيها وتسحب الذيل خيلاء ، فابتدرها بهذا السلام « صباح الخير يا «كات » (تصغير) « كاثرين ») فأنكرت الغانية منه هذه الجرأة والتهجم على مقامها الرفيع فقالت « اسمى كاثرين ، فليسمنى بذلك من يخاطبنى وإلا فليسكت » قال بتروشيو كذبت يا «كات » لأنهم يا « كات » يسمونك « كات » وأحيانا « كات » الرشيقة و « كات » الجميلة و « كات » اللعوب و« كات » الشريرة و « كات » الوقحة ، ولكن اسمعى منى يا « كات » . إنك وأيم الحق لأملح جميع من فى العالم من « الكاتات » (جمع « كات ») ، ولتعلمن بعد يا «كات » إنى على أثر ما وصف لى من فرط تواضعك وحسن طاعتك رغبت فيك زوجة فجئت أخطبك .

فأوسعته الفتاة شتما وسبا ، وكلما انهالت عليه بلفحات القدح والهجاء ، انهال عليها بنفحات المدح والثناء . حتى إذا أحس بقدوم أبيها قال لها على مسمع منه ليصل إلى غرضه بأسرع ما فى الإمكان « حبيبتى كاثرين ! دعينا من هذا الهزل والمزاح ، واعلمى أن أباك قد ارتضانى لك بعلا ، وقد حدد لى مهرك

« الدوتة » ولسوف تزوجين منى طوعا أو كرها » .

ثم التفت إلى أبيها ـ وكان قد دخل الحجرة مع انتهاء مقاله ـ فقال له إن ابنته قد أحسنت استقباله وبالغت فى إكرامه وإعظامه ، ووعدته أن تتزوج منه يوم الأحد القادم . ولكن « كاثرين » كذبته قائلة إنها لتود أن تراه يوم الأحد مذبوحا أو مشنوقا ، ثم نقمت من أبيها إغراءه إياها بالتزوج من مثل ذلك الأحمق المعتوه . فرغب « بتروشيو » إلى والد الفتاة أن لا يعبأ بمقالها إذ كانا قد اتفقا فيما بينهما على أن تتظاهر أمامه بعدم الرغبة فى الزواج ، ولكنها قد أظهرت فى غيبته أقصى منتهى التودد إليه والأنس به ، ثم التفت إلى الفتاة فقال « مدى إلى يدك يا كات » سأرحل إلى فينسيا لأشترى لك حلة بهيجة لليلة الزفاف ، فأعد العدة للعرس يا أبتاه ! وادع الضيوف » ، ثم تركها وهو يقول « سآتيك يا «كات » بكل أصناف الحلل الفاخرة . والحلى الباهرة . أساور ودمالج وأقراط وخلاخيل وقلائد لتكونى أملح الغانيات ليلة العرس » وانصرف .

اجتمع الضيوف وتكاملوا فى الساعة المحدودة من يوم الأحد ، ولكن بتروشيو أبطأ وطال إبطاؤه حتى سئم القوم وجزعت « كاثرين » وكاد يقتلها الغيظ إذ حسبت أن بتروشيو إنما كان يهزأ بها ويسخر من أقدس عواطفها .

وبعد أن عيل صبرها قدم بتروشيو ، ولم يحضر أى شيء مما كان وعدها من الحلى والحلل .

وكان قد ارتدى ثيابا عجيبة مضحكة أشبه شيء بما يسمونه « الكرنفال » وألبس اتباعه وخدامه مثل ذلك (وكان أبوها قد فطن إلى أنه قد تعمد ذلك وسيلة لكسر شوكة ابنته والغض من غلواء كبريائها) فسكت مستسلما ولكن الضيوف الذين لم يعلموا من سر ذلك ما علم الوالد بهتوا ودهشوا وحارت عقولهم ، أما الآنسة كاثرين فكاد الغيظ يمزق أحشاءها وامتنعت من الذهاب على هذه الحال إلى الكنيسة ولكن والدها أرغمها إرغاما .

انطلق الجميع إلى الكنيسة واستمر « بتروشيو » يتظاهر بالسخف والمجون ، وإن شئت فقل الحمق والجنون . فمن ذلك أنه لما سأله القسيس هل يقبل « كاثرين » زوجة له صاح « إى والله ! إى ولله ! أقسم بالله ! » أقسم بالله ! »

بصوت كالرعد القاصف زلزل جدران المكان زلزالا وكاد يحطم زجاج النوافذ ، حتى انتفض القوم فى مقاعدهم وريعوا وارتعدت فرائص الفتاة فزعا ، وذهل القسيس وسقط دفتر الزواج من يده ، ولما انحنى ليلتقطه لكزه « بتروشيو » بجمع كفه لكزة أسقطته والدفتر إلى الأرض ثانية .

ولكن القسيس مضى فى إبرام العقد على الرغم من ذلك كله ، واستمر بتروشيو فى أساليب سخفه ومجونه يسب ويلعن ويضرب الأرض بقدميه حتى كاد الرعب يذهب بعقل الفتاة وجعلت تنتفض كالعصفور بلله القطر . وقبل أن يبرحوا الكنيسة طلب بتروشيو قدحا من الخمر فشرب نخب الحضور بصوت مزعج وبقيت بالكأس صبابة فقذف بها فى لحية شماس من الشمامسة ، ولما سئل عن ذلك ، قال إنه وجد لحية الرجل خفيفة النبات قليلة الخصب تحتاج إلى التسبيخ فسبخها بالخمرة وإنها لخير سباخ .

فكان أجن زواج رآه العالم منذ زوجت حواء من آدم !

وكان « بابتيستا » والد العروس قد صنع وليمة فاخرة . ولكنهم ما وصلوا إلى المنزل حتى قبض بتروشيو على يد زوجته كاثرين وأعلن نيته على الرحيل لتوه ولحظته دون أن يتزود لقمة واحدة من ذلك الخوان الحافل ، ولم يثن عزيمته ما وجهه إليه حموه من طلب ورجاء ولا ماصوبته نحوه زوجته من لوم وهجاء . فأعلن حقه فى أن يتصرف فى زوجته كما شاء ، ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر ورحل بها على حصان مسن مهزول فى طرق وحلة وعرة ، وكلما كبا بها الجواد صاح به يزجره ويكيل له السباب كيلا جزاء له على ما صنع بزوجته المحبوبة حتى لكأنه أرأف الناس بها وأشفقهم عليها .

وأخيرا وصلا إلى المنزل وهنالك رحب بزوجته ، ولكنه أصر على أن لا يذيقها طعاما ولا مناما تلك الليلة .

فلما نصب الخوان وصفت الألوان . وتقدمت كاثرين لتناول العشاء ، وكان الجوع قد بلغ منها مبلغا ، جعل بتروشيو يأخذ الصحاف ويقذف بها إلى الأرض فتتحطم ، ويعيب الأطعمة ويذمها ويسب الطاهى لسوء صنعته والخدام لقبح صنيعهم ويعجب من قحتهم وقلة حيائهم إذ يقدمون أمثال تلك الأطعمة السيئة

الكريهة ، إلى أجمل الآنسات وأملح الغانيات .

ولما ذهبت كاثرين إلى مضجعها لتنال قسطها من الراحة بعد طول الكد والنصب ، فعل بالفراش المعد لها كما فعل بألوان الطعام فتناول الوسائد والملاءة واللحاف فرمى بها من النافذة بحجة أنها رثة قذرة لا تليق بمقام السيدة الثرية النبيلة سلالة الحسب التليد ، والشرف العتيد . فاضطرت إلى قضاء الليل الطويل على مقعد ، وكلما مال برأسها النعاس هبت مذعورة على إثر صيحة من زوجها موجهة للخدم تعنيفا لهم على تقصيرهم فى واجب العناية بزوجته المكرمة .

وفى اليوم التالى سلك بها عين ذلك المسلك حتى نهكها الجوع وأعياها النصب وأصبحت تلك الآنسة المنعمة المرفهة ذات العزة والجبروت تتنزل من عليائها كبريائها إلى التماس كسرة من الخبز أو رشفة من المرق من أحقر الخدام، ولكنهم ضنوا عليها حتى بذلك طبقا لاوامر سيدهم ، وهنا صاحت كاثرين « هل تزوجنى ليميتنى جوعا ؟ إن الشحاذين الذين يطرقون باب أبى يعطون من الزاد ما تبخلون به علىّ ، وأنا التى نشأت فى النعمة وترعرعت فى الرفاهية ولم أتعود قط مذلة السؤال ولا مضاضة الرجاء تبلغ بى الحال أن أشحذ اللقمة والجرعة فيضن بها علىّ وقد تصدع رأسى من السهر دوارا . والتهبت أحشائى من الجوع أوارا . وأسوأ ما فى الأمر أن كل ذلك يفعل بى بحجة باطلة من الشفقة الكاذبة والرأفة الزائفة »

ولما كان « بتروشيو » لا يريد أن يهلكها جوعا دخل عليها فى تلك اللحظة حاملا طعاما فوضعه بين يديها وقال « كيف حال حبيبتى وقرة عينى « كات » ؟ هاك يا منية النفس وشقيقة الروح طعاما صنعته لك بيدى لترى فرط عنايتى بك وحرصى على صحتك ، مالى أراك ساكتة لا تفوهين بلفظ واحد ؟ أكل هذه العناية لا تستوجب منك كلمة شكر ؟ لشد ما بخستنى حقى وكفرت بنعمتى ، وليس من حق كافر النعمة أن تدوم له ، فلأزلها عنك » ثم أمر أحد الخدم أن يرفع الزاد من بين يديها ، ولكن الجوع الذى كسر من حدة كبريائها دفعها إلى الإغضاء على هذه الإهانة العظمى واحتمال تلك المذلة الكبرى فقالت « إنى أتوسل إليك أن تترك لى هذا الزاد ، إنى أوشك أن أموت جوعا » على أن هذا لم يكن

كل ما أراد بتروشيو أن يستخرجه منها فأجابها قائلا « عهدى بالجميل يستوجب الشكر مهما قل مقداره ، فلتشكرن جميلي أو لأسحبنه » فقالت كاثرين مكرهة « أشكرك يا سيدى » . عند ذلك تركها تنال من ذلك الزاد النزر الطفيف قائلا « على مهلك يا حبيبتى ، رويدا رويدا ، فإنه أصح لبدنك وأبقى لمنتك ، ولتعلمن بعد يا قرة العين أنا عما قريب ذاهبون إلى دار أبيك فلاهون ثمت ولاعبون ورافلون فى حلل الديباج ، وحلى الذهب الوهاج ، ولقد أوصيت أحد الخياطين أن يعد لك من صنوف الملابس ما يليق بك » وليريها أنه جاد فى قوله استدعى خياطا يحمل صرة من الثياب ، ثم تناول صحن الطعام من أمامها قبل أن تملأ نصف بطنها فأعطاها للخادم قائلا لها « أوقد فرغت من غذائك ؟ » وهنا قدم الخياط إلى بتروشيو قلنسوة زرقاء قائلا « هذه هى التى أوصيت بصنعها » فصاح به بتروشيو صيحة منكرة وأوسعه سبا وشتما وأمره أن يذهب بها من أمامه قائلا :

« ويل لك ! أى خير فى مثل هذه القلنسوة . أوَقد كنت أوصيتك أن تصنع قلنسوة لهرة بيتنا ؟ ما أحسب إلا أنك فصلتها على إبريق الشاى ، خذها لابورك لك فيها : هل كنت سألتك أن تجيئنى بقشرة بندقة ؟ » فقالت كاثرين « أعطنيها فإنه لابأس بها ، ولقد رأيت السيدات المهذبات يلبسنها » قال بتروشيو « سأعطيكها يوم تصيرين مهذبة ، أما قبل ذلك فلا » وكان الطعام الذى أكلته كاثرين آنفا قد نعشها وجدد من نشاطها وحدتها فقالت « أحسب أنى باعتبارى حرة طليقة لى الحق فى إبداء رأيى ، ولأبدينه . لقد كان سادتك ومن هم أجل منك قدرا وأرفع مقاما يستمعون إلى مقالى ، فإن كنت لا تطيق ذلك فسد أذنيك » فراغ بتروشيو من جوابها هذا كأنه لم يسمعه ثم قال « تقولين إن هذه القلنسوة حقيرة لا ترضيك ؟ خيرا تقولين ، ومن أجل ذلك أحبك » قالت كاثرين « سواء عندى أأحببتنى أم لم تحبنى ، إنه لابد من أخذ هذه القلنسوة ، وغيرها لاآخذ » فراغ بتروشيو من ذلك الحديث أيضا ثم قال للخياط « أرنى الرداء الذى أوصيتك بإعداده » فلما عرضه عليه عابه كما عاب القلنسوة وزجره وطرده على الرغم مما أبدته كاثرين من شدة الرغبة فيه .

ثم التفت إليها قائلا لا جرم يا حبيبتى « كات » لنذهبن إلى دار أبيك فى ملابسنا هذه الحقيرة » . ثم أمر بإعداد الخيل للرحيل وقال « سنرحل اللحظة ،

ولدينا متسع من الوقت ، وأكبر ظني أنا سنصل هنالك قبل ميعاد الغداء فالساعة الآن السابعة صباحا » . فدهشت كاثرين إذ كانت الساعة وقتئذ اثنتين بعد الظهر ، فتجاسرت إذ ترد عليه قائلة بصوت خافت ولهجة متواضعة لما كان قد بهرها وغمرها وأطبق على حواسها من جهارة وشدة ضجيجه وثوراته « اسمح لى أن أقول إن الساعة الآن اثنتان بعد الظهر ، فليس فى الإمكان أن نصل هنالك بحال إلا بعد ميعاد العشاء » . ولما كان بتروشيو قد اعتزم أن يخضعها إخضاعا لا تستطيع معه إلا النزول عند حكمه فى كل شيء كائنا ما كان بلا أدنى معارضة ولا مراجعة، أجابها الساعة ما أريد أن تكون » حتى لكأنه المسيطر على دورة الفلك السيار والمهيمن على اختلاف الليل والنهار .

ثم التفت إليها قائلا « لا تزالين لى معارضة فى كل ما أقول وأفعل ، لست ذاهبا اليوم إلى دار أبيك ، ومتى هممت بالذهاب فستكون الساعة وقتئذ ما أفوه به »

مضى ذلك اليوم بلا سفر ، ولما شاء بتروشيو فى اليوم التالى أن يعلن رغبته فى السفر تعمد الخطأ فى أمر الساعة كما فعل من قبل فلم يجد من زوجته إلا تمام الموافقة والخضوع والطاعة العمياء ، فعلم أنه قد كبح من جماحها ونهنه من سورة طغيانها .

عند ذلك عزم على الذهاب بها إلى دار أبيها .

وفى أثناء مسيرهما حدث حادث عجيب انتهى بتمام خضوعها وإذعانها إلى الطاعة العمياء وذلك أنه نظر إلى الشمس وقال لزوجته « تأملى القمر فى كبد السماء كيف بهاؤه ولألأؤه ! » قالت « تعنى الشمس ؟ » قال « كلا بل القمر ، وتالله لن أتقدم خطوة واحدة حتى تقرى أنه القمر » ثم ثبت مكانه وأوهمها أنه يهم بالعودة إلى منزله ، ولكن كاثرين الطيعة المسماح (لقد تلاشت كاثرين العصبية الجموح) قالت « بل سر بنا وليكن القمر أو المريخ أو مشعل حطب أو - إن تشأ - فقنديل زيت أو شمعة من قش » فاسترسل بتروشيو فى عناده واستبداده ليزداد تثبتا من خضوع زوجته وإذعانها ، قال « إنى أصرح أنه القمر » قالت « وأنا أعلم يقينا أنه القمر » وقال بتروشيو « كذبت ، إنها الشمس » قالت

كاثرين « هى الشمس إن شئت ، فإن لم تشأ فما هى بالشمس ، فما تشاء أن تكونه تكنه وما لم تشأ أن تكونه لم تكنه »

وبذلك اطمأن قلبه واستراح ضميره ، ولكى يزداد استراحة وطمأنينة استوقف شيخا مسنا أشيب كان سائرا فى سبيله فخاطبه كما لو كان فتاة صغيرة قال « عمى مساء يا حسناء » ثم التفت إلى كاثرين فسألها هل رأت قط أملح من هذه الفتاة وأجمل ، وهل أبصرت أرشق منها قدا ، وأنضر خدا ، وألطف نهدا ، وأحسن غيدا ، وأسحر طرفا ، وأمتع ظرفا وألين عطفا ؟ ثم واجه الشيخ ثانيا قال « أيتها المليحة الفاتنة أسعد الله دهرك وأطال عمرك ، وضاعف إليك منته . وأتم عليك نعمته . » ثم قال لزوجته : « يا كاتى » الحسناء ، بالله عليك إلا ما عانقت هذه الفتاة إجلالا لإبداع صنع الله فى محاسنها الباهرة » فأذعنت كاثرين لأمر زوجها وخاطبت الشيخ الهرم بالكلمات الآتية « أيتها الخريدة العذراء ما أفتن حسنك وما أبهر جمالك ، لقد استعرت من الشمس بهجتها ومن الزهر نضرتها ومن الورقاء نغمتها ، ومن الصبا اللعوب أرجها وخطرتها ، أيان تذهبين ، ومن أين تقدمين ، طوبى لمن تعاشرين وتلابسين » فقال بتروشيو « ما خطبك يا كاثرين وما دهاك وماذا أصاب عقلك ؟ هذا شيخ هم فان قد نقض الدهر مرته ، ونحت أثلته ، وأذوى أيكته ، وصوح نضرته ، وأذبل زهرته ، وخدد كدنته، وغضن صحيفته » فالتفتت كاثرين إلى الشيخ وقالت : « معذرة أيها الشيخ ، لقد بهرت الشمس بصرى فما أرى شيئا على حقه ، فتجاوز عن زلتى » .

ثم جرى بين بتروشيو وذلك الشيخ واسمه (فننشيو) حديث تبين منه أنه والد فتى يدعى « لوسنشيو » كان قد خطب أخت كاثرين الصغرى « بيانكا » وإنه ذاهب إلى دار بابتيستا ليشهد حفلة الزفاف . وكذلك ساروا جميعا فرحين مسرورين حتى بلغوا دار بابتيستا حيث كان يحتفل بشعائر زواج « لوسنشيو » و « بيانكا » وكان أبوها قد سمح بزواجها بعد ما تخلص من « كاثرين »

ولما دخلوا رحب بهم « بابتيستا »وكان بين الحضور فتى يدعى « هورتنسيو » وزوجته وكانا حديثى عهد بالزواج .

وجعل « لوسنشيو » و « هورتنسيو » ـ الزوجان الجديدان ـ يتغامزان على

« بتروشيو » إيماء إلى سوء حظه الذى ابتلاه بالشريدة كاثرين ، ويتفاكهان بالنوادر تهكما من كاثرين وسطوتها وجبروتها وكلاهما يحمد الله الذى رزقه زوجة طيعة ذلولا ، فأسرها بتروشيو فى نفسه وصبر حتى انصرفت السيدات الثلاث إلى حجراتهن .وأقبل على صاحبيه فقال « أتضحكان من زوجتى ، وإنها لأرق من زوجتيكما حاشية وأغض مكسرا وأسهل جنابا ؟ » عند ذلك ضحك « بابتيستا » وقال :

« كلا وربك ، لقد ذهبت بأسوأهن خلقا وأصعبهن شكيمة » . قال « ليظهر لكم صدق مقالتى دعونا نرسل فى طلب السيدات الثلاث فأينا كانت زوجته أسرع إجابة بحضورها قبل الآخرين تقاضي من صاحبيه غرامة ، فرضى الزوجان بذلك وتراهنوا على عشرين دينارا ، وبدأ « لوسنشيو » فأرسل إلى « بيانكا » خادمه يسألها أن تحضر ، وسرعان ما عاد الخادم فأخبر « لوسنشيو » إن سيدته تقول إنها مشغولة لاتستطيع الحضور ، فقال بتروشيو « كيف حالك يا صاحبى ، أهكذا يكون جواب الزوجة لزوجها ؟ » . فضحك الجماعة وقالوا له « ليت زوجتك تكتفى بمثل هذا الجواب فلا تنبذك بما هو شر وأسوأ ، ثم أرسل « هورتنشيو » فى طلب زوجته إذ قال لخادمه « اذهب إلى سيدتك فارجها أن تأتينى » . قال بتروشيو« أرجها ! وعلام يرجوها ؟ وأما وقد وصل الأمر إلى الرجاء فما أراها إلا مخيبة رجاءك » فقال هورتنشيو : أكبر ظني يابتروشيو إن زوجتك لن يفلح معها رجاء ألبتة » ولكن هورتنشيو مالبث أن أطرق خجلا إذ عاد خادمه فقال إن سيدته تقول إنكم تمزحون وتلهون فإن كنت تريد لقاءها حقا فاذهب أنت إليها » ، قال بتروشيو « هذا أمر وأدهى » ثم أرسل خادمه قائلا له « امض إلى سيدتك فقل لها إني آمرها أن تحضر حالا » ، فلم تك إلا لحظة حتى صاح « بابتيستا » قائلا « وأيم الله هذه كاثرين نفسها قادمة لكأنى والله فى حلم ! » ودخلت كاثرين فقالت لزوجها فى خشوع وتواضع « سيدى ! إنى رهن إشارتك وطوع بنانك » فقال لها بتروشيو « أين أختك وزوجة « هورتنشيو ؟ » فأجابت كاثرين « فى غرفة السمر » قال بتروشيو « اذهبى فأحضريهما فى الحال » فصدعت بالأمر بلا أدنى تردد وصاح لوسنشيو « هذا عجب وأى عجب ! » وقال هورتنشيو « ليت شعرى ماذا تريد كاثرين وماذا

تبغي بسلوكها الغريب هذا ؟ » قال بتروشيو « ما تريد سوى الأمن والسلام والهدوء والراحة وما تبغي سوى الخير والمعروف والوداد والمحبة » وصاح والد كاثرين وقلبه يفيض سرورا « أجزل الله ثوابك يا بتروشيو ، لقد كسبت الرهان وسأضاعف لك مهر زوجتك فلقد يخيل إليّ إنها خلقت خلقا جديدا » قال بتروشيو « لأرينكم آية أخرى على حسن طاعتها وخضوعها » وكانت كاثرين قد عادت بالزوجتين العاصيتين فقال لها اسمعي يا «كات » ، هذه القلنسوة لا تجمل بك ، اطرحيها تحت قدميك » ولم يكد يتم لفظه حتى نزعت كاثرين القلنسوة عن رأسها وألقتها تحت قدمها . فصاحت زوجة هورتنشيو « ما هذه المذلة والمهانة ! إني أعوذ بالله أن أصاب بمثل ذلك ! » وقالت بيانكا « هذا هو البله والجنون بعينه » فأجابها زوجها ليت هذا البله والجنون كان لك بدلا من كياستك وعقلك ، إذن لكنت وفرت على ما خسرته من الرهان الساعة » .

بايزيد

كان الأمير التركى سليمان جالسا فى صدر ديوانه بين الحاشية والأتباع فى لجة من الفكر العميق ، وأوما إلى الحاشية بالانصراف وبقى معه ابنه « بايزيد » .

ودخل حارس الحريم ، نوبى أسود ، فقال له الأمير :

« امض هارون إلى خدر ابنتى زليخا فنادها فلقد قضيت عليها قضاء ما إخالها ترضاه ، ولكنى مرغمها عليه إرغاما » فمضى هارون بأمر مولاه .

وهنا قام بايزيد فقال « إن كنت مؤنبا أختى زليخا على ذنب فإياى أنب ، فأنا الذى به أغريتها وعليه حملتها ـ ذلك أنى حينما انتهيت الغداة من الوسن راقنى رونق الصباح ، وراعنى جمال الطبيعة ، فقلت من كان يؤثر الكسل والقعود فى هذه البكرة الطلة المونقة ، وهذه الضحى البهجة المشرقة ، فأنا الذى يؤثر أن يرتع فى الحقول ، ويخوض لجج الأعشاب والبقول ، ويجتلى عجائب الماء والسماء ، وغرائب الروضة الغناء ، وإذ كان ليس يتم السرور إلا باستصحاب الرفيق المؤنس ، أسرعت إلى خدر أختى زليخا فنبهتها ثم انحدرنا معا إلى مغارس الآس والياسمين فتبوأنا من أرائك الروض حيث شئنا وتناشدنا أبيات كثير عزة وجميل ومجنون ليلى وأشعار السعدى والفردوسى والشيرازى ، حتى إذا حان موعد الديوان هرعت إليك ، وتركت زليخا بين أكناف الروض فى ظلال الجنان »

قال الأمير مغضبا :

« ألا يا ابن السبية وسليل النصرانية ! خاب فيك الظن وأخفق الرجاء ، إذ جئت خلوا من كل مايزين الرجال ، ويجمل الكماة والأبطال . أحينما بلغت أشدك وغلا فيك ماء الشباب وآن لك أن تكبح الفرس الجموح ، وترسل السهم الطموح ، ألا يا بن الكافرة ، وصنو الفاجرة ، ويا نصرانى الروح ومسلم النشأة ، أحين صلب عودك ووثق ركنك وانتظر منك مجاذبة الأعنة وملاعبة الأسنة ، رحت وجل همك العبث بماء الينابيع ، واقتطاف أنوار الربيع ، فياليت أمك لم

تلدك ، أو ليت أم الأنوار ، وجمرة النهار ، تلك التى أنت بضوئها مفتون ، وبحسنها مجنون ، كانت أفادتك من أوارها حرارة ، ومن نارها شرارة ، لكأنى بك ، ورب البيت ، إذا داهمتنا طلائع الأعداء ، وقطعت من قومك الأوصال والأشلاء ، بل لو دمرت إسلامبول مدافع الروس ، وزينت الإسلام حرب أشأم من البسوس ، ما تحركت فيك جارحة ، ولا علوت للخطب الجسام صهوة سابحة ، فامض لاقدست ، فاحمل على رأسك المخنث الطيب والغالية ، وأخضب من كفك بالحناء كف غانية »

لم يفه « بايزيد » بلفظة وإن كان ذلك الهجاء قد أنضج كبده ، ولكن نار الغضب تأججت فى عينيه وتلظت ، حتى ريع الشيخ من لهب لحظاته المحتدمة وأجفل ، فألان من سورته ، وسكن ثورته ، وقال « لا تغضبن بايزيد ، فإنى والله أعلم منك بك ، ولا عجب فأنت لا تزال حدثا صغيرا ، ولو كنت أكبر سنا وأشد ساعدا ، لكنت أعلم بالنضال وأقدر على صراع الأبطال » .

ثم حملق الشيخ فى الغلام فإذا الغلام يرميه بلحظ أحد من لحظه وأمضى ، ويقابل كبرياءه بأشد منه وأطغى ، فوجف الشيخ وقلق باله ، وقال بصوت خفى: « إنى لأوجس من هذا الغلام شرا ، وتالله ما أحببته قط ، ولولا ما أعرف من عجزه عن الفتك والبطش لخفت منه هذا اللحظ المحدد ، والطرف المهدد ، ودما فى عروقه مشاكلا دم أبيه الحقيقى ، .. ولكن كفى ، فالسكوت عن مثل هذه الأمور أجمل وأمثل » .

وجاءت زليخا ، وكانت كأجمل من أقلت الغبراء وأظلت الخضراء ، أشرق من الكوكب اللماع ، وأرق من زفرة الملتاع ، وأطهر من نطف السحاب ، ومن دعاء الطفل المستجاب .

أقبلت زليخا منكسة الجيد تثنى على نهديها ذراعين عبلتين ، بوجه أغر أبلج كصفحة القمر الأضحيان :

وصدر مشرق النحر　　　كأن ثدييه حقان

ثم عمدت إلى أبيها ناشرة الذراعين لتعانقه ، فخارت عزيمة الأب وانتفض ما كان فى أمرها قد أبرم ، وتنازعت لبه عوامل الحب الأبوى ، والطمع الأشعبى .

وقال :

« زليخا ! قرة العين وقوت الفؤاد ! ما أسعد اليوم الذى يهوّن على فيه فراقك زواجك من سيد شريف ، وماجد غطريف ، وأى الناس أنبل وأسنى وأشرف وأسمى ، من أخى قبيلة قرزمان بناة العلى ، وحماة الحمى ، وليوث الشرى ، وسادة الورى ، وحسب خطيبك نبلا أنه قريب « أوغول بك » وإنه سيد ضخم ، وفارس شهم ، قد سمت به سنه المتقدمة عن طيش الشباب ، وشر الأزواج شاب ، وسأصير بإضافة قوته إلى قوتى بفضل الله مهيبا ، وعند الخصوم والأعداء مرهوبا ، أعاند الغشمشم الجبار ، وأناهد العرمرم الجرار ، والآن قد عرفت عزيمتى فيك ، والحد الذى رسمته لك لتنزلى عليه وتقفى عنده ، وبأمر الوالد فليصدع المولود ، وما حكم الوالد على العلات بمردود » .

فأطرقت الفتاة وأمسكت الهيبة دمعها أن يفيض ، فتحير فى الآماق لا ينهل ولا يغيض ، وترددت وجنتاها من الخجل والوجل بين صفرة البهار ، وحمرة الجلنار ،ورصعت أهدابها لألئ الدمع ، فبود الغرام أن تدوم تلك الآلئ مكانها عنوان الجمال ، وضرج الخفر خديها ، فبود الغرام أن يظل تانك الوردتان ثمت دلالة الدلال .

نهض الأمير فنادى صاحب خيله ثم خرج فى شرذمة من فرسانه ، وخلف زليخا وأخاها بايزيد وحدهما ، وأحزن الغادة أن رأت أخاها فى غمرة من الحزن والجوى ، ثم نادته فلم يجب ولم يسمع ، ودنت منه فإذا هو ساهى الطرف شاخص البصر ، وكانت تعلم أنه يحب العطر فجاءت بفارة من المسك ففضتها عليه فلم يحفل ولم يكترث ، ووضعت بين يديه زهرا أو ريحانا فلم يعبأ ولم يلتفت ، فأقبلت عليه قائلة « واغوثاه ! أرفضا لهديتى وإعراضا عن مقالتى ؟ بايزيد يا نور عينى ويا سويداء مهجتى ! خبرنى ، أمنى تخاف ، وإياى تبغض ؟ إلىّ بايزيد ! وسد جبينك صدرى ، أطفئ بالعناق لوعتك ، وأبرد بالتقبيل غلتك ، قد أعلم أن لأبى أحيانا غلظة وقسوة ، وفيه فظاظة وجفوة ، ولكن لا تنس أن لأختك قلبا عليك خفاقا ، وحشا عليك أبد الدهر مقلاقا ، وربما أحزنك ما قد أزمع أبى من أمر هذا القران ، ولعل بينك وبين خاطبى كمين أحقاد وأضغان ، فأما

والرامين بالجمار ، والكعبة ذات الأستار ، لايمسن امرؤ ذيل بردتي دون رضاك كائنا من كان ، ولو أنه السلطان ، أتحسب بايزيد أنى أطيق بعدك ، أو أجد للحياة لذة من بعدك ؟ وأى العيش يصلح من دونك ؟ أتحسب بايزيد أنى أطيق أن أشرك فى حبى إياك أحدا حتى ولو كان زوجا ؟ أترانى قادرة أن أنظر أبد الدهر بعين المحبة إلى غيرك ؟ لا كان قط ذاك اليوم الذى يختطفني فيه من أحضانك رجل غريب يسمونه زوجا ! لا كانت ساعة تزورّ بى فيها أعناق المطى عن كنفك ! ولا والله ما كان عزرائيل نفسه ليستطيع أن يفرق بين روحى وروحك ، وما كان لملك الموت أن يقبضك إلا وأنا على أثرك ، وكما نحن الآن على ظهر الأرض ممتزجان ، فكذلك تحت التراب يمتزج منا الجسدان ، وفى الجنة أو الجحيم يلتئم الروحان »

لقد تحرك بايزيد ، لقد أفاق من غشيته وانتبه من رقدته ، ثم حنا على الفتاة فأنهضها وكانت بين يديه راكعة ، وتأججت روح الفتى بايزيد فى عينيه ، وانبعثت فى لحاظه خفايا ضميره وخبايا سريرته ، فلا وربك ما البرق الخاطف في حاشية السحابة السوداء ، ولا الكوكب المنقض يخوض أحشاء الظلماء ، بأسرع لمحا وأسطع ضراما من وميض روح بايزيد يستعر بين أهدابه الوطفاء ، ولهيب عاطفته يأتجج فى سواد مقلته الدعجاء ، ولا الفرس الجموح هاجه تداعى الفرسان ، والأسد الطموح أثاره تصايح الذؤبان ، بأخف نهضة وأسرع وثبة ، من بايزيد حين سمع من الفتاة هذه اليمين ، والقسم المبين ، فسار سورة الأفعوان ، وأعلن ما لم يزل يكنه الجنان من أسرار خطيرة طالما أسدل من دونها حجاب الكتمان ، قال :

« والآن - وليس قبل الآن - أيقنت أنك ستظلين قرينتى مدى الدهر وشريكتى فى الحياة ، واعلمى أن فى تلك اليمين التى حلفتها الآن شريك لك فهى تربطنا معا بأوثق عرى الحب والوفاء ، فاكتمي يارعاك الله سر هذه اليمين ، إني لأعرف ذلك الوغد الذى اجترأ أن يخطبك إلى أبيك ، وأشهد أنه شر الناس وأخبث من وطئ أديم الأرض ، ولكن دعينا من هذا ، وحسبك الآن ما سمعته منى الساعة ، وستعلمين البقية فى أول فرصة تسنح ، وسأترك قضية الوغد الخسيس الذى جاء يخطبك ليقضى فيها غرار نصلى ونصال زمرتى ، فإن لى لزمرة أمضى من

السيوف ، وأفتك من الحتوف ، وإنى والله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا

قالت زليخا وهى تضمه وتقبله :

« واغوثاه ! إن شفتيك تلتهبان ، وإن لمرجل الغضب فى صدرك أشد فوران ، وتالله لقد أعديتنى فمهجتى فى استعار ، ووجنتى فى احمرار . هاك أبى قادما ، ولكننى لا أسر بقدومه ولا أرتاح للقياه ، وأرى قلبى ينفر منه ويجفل ، فهل ترى لذلك الشعور الغريب من سبب ؟ »

قال بايزيد :

« دعينا من ذلك الآن ، فعما قريب تعرفين سر ذلك وكل ما عداه من أمور قد بقيت إلى الآن عنك مستورة ، وارجعى إلى خدرك فإذا مضى من الليل هزيع فارقبى منى وقد رقد القوم زورة إليك أدهى من زورة الذئب ، ثم نسرى معا فى جنح الليل وتحت جناح الظلماء إلى مكان خفى . إن معى مفتاحا لباب خدرك ، وقد رشوت الحراس ، وعند اللقاء تسمعين منى النبأ العجيب ، والسر المدهش الغريب ، فإن لى لباطنا خلاف ما ترين ، والآن اذهبى فى سلام »

فى جنح الليل البهيم أسرت زليخا وبايزيد تحت ظلال الأجم الكثيف حتى لجآ إلى غار عن الأبصار محجوب ، وراب الفتاة من رفيقها أنه كان مدججا فى السلاح ، كامل العدة ، فقالت :

« جعلت فداك مامعنى كل هذا التأهب والاستعداد ؟ »

قال بايزيد :

« أولم أنبئك أنى غير ما تعهدين ، وإن لى لشأنا خلاف ما تعرفين ، ما هجس لك قط فى فؤاد ، لا فى يقظة ولا فى رقاد ، وعبثا أكتمك الآن قصتى ، وأخفى عنك حقيقتى ، وخلاصة ذلك السر الخطير يا زليخا هو أنى لست لك أخا ، فلا تتزوجى أحدا خلافى ! »

فصاحت الفتاة :

« لست أخى ! رحماك اللهم ! لست أخى وكذلك أعيش فى الدنيا منفردة وحيدة ، أبكى فقد الشقيق ، وأندب عدم الصديق ، واحر قلباه ! وهكذا أقفر لى قلبك من الحب والمودة ، بل ربما آض حبك عداوة ووداك كراهية ، ولعلك ما جئت بى إلى ههنا إلا لتقتلنى ، فإذا صح هذا فحبذا الموت إن سرك ، وما أعذب الحمام إن كان فيه رضاك ، ولرقدة الموت أروح على من الحياة من دونك ، فإن لم أكن أختك كما تقول ، فهلا استبقيتنى بامتلاك رقى فأظل فى حوزتك إلى الممات مملوكة ؟ »

قال بايزيد :

« مملوكة لى يا زليخا ! حاشا ياقرة العين ! بل عبدك أنا وملك يمينك ! ولكن هونى عليك وأيقنى أنه لن يفرق بينى وبينك شىء ولا الممات ذاته ، واعلمى بعد أن أباك سليمان ليس أبى ولكنه عمى ، وكان قد طمع فى منصب أبى وأنا طفل صغير فقتله غيلة وجلس مكانه . ومنذ ذلك الحين لم أجد منه عطفا قط ولا رحمة ، ومابرح يتبرم بى ويستوحش ويرانى كالشبل الذى يخاف بعد مصرع الأسد شره ، ولا يؤمن أذاه وضيره ، وما أخطأ ، فإن دم أبى لا يزال يحمى فى عروقى ويثور ، ومرجل الحنق يغلى فى مهجتى ويفور ، وحاول أبوك بعد اغتيال أبى أن يبقى الخبر عنى مكتوما فأنشأ منه على جهالة ، فتبنانى مسيئا عشرتى ، مدمنا مساءتى ، فقضى على أن أبقى وسط النساء فى الحجال والخدور فلا أتعلم الفروسية ولا الرماية ولا الكر فى الميدان ، ولا مناجزة الأقران ، ومصاولة الفرسان ، وكنت قد ورثت حماسة أبى وفتوته ، فلم يلائم مزاجى الحار المتوقد عيشة الحلل والقصور ، ولا ناسبت سليقتى القلقة الجياشة عشرة الخرد الحور وكان هارون خادمكم ، عبد أبى من قبل وحارس حريمه فعز عليه ما جرى ، وأذعن على مضض وكنت أحب إليه من روحه الذى بين جنبيه ، فكان يجد فى كتمانه الأمر عنى عبئا على صدره ونارا تشب فى جوانحه لا يطفئها إلا إفشاء السر لى ، ففعل ، ثم شق عليه أنى أشب « كمن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » ، واتفق أن أباك خرج فى سياحة دامت ثلاثة أعوام فانتهز هارون الفرصة فأطلقنى من إسارى وأبحرت مرة على زورق أدانى إلى بعض تلك الجزائر التى ترصع ديباجة الموج ، وترقش جلدة اللج ، فلقيت بها عصابة ناهيك من عصابة !

قد احتقروا سلطان الحكومات وصولة الملوك والقياصرة ، فخرجوا من رق القوانين وسلطة الشرائع :

مساعير للهيجا ، مناكير للخنا　　مصابيح فى الجلى ، مساميح فى الندى

أعمارهم معلقة بأطراف الأسنة المطرورة ، وشريعتهم مرقومة على متون الصفائح المشهورة ، مهادهم الأرض والماء ، ولحافهم الهواء والسماء ، طعامهم فى أوتار القسي ، ومخالب البازيّ ، وكسبهم معقود بنواصى العتاق الضامرة ، وشفار الرقاق الباترة ، أبناء صحراء ، وجواب ظلماء ، وعفاريت هيجاء ، أسود غاب وأساود لصاب ، إخوان فى الشدة والرخاء ، وأعوان على السراء والضراء ، الملل والعقائد عندهم سواء ، لا دين لهم إلا الحلف والإخاء ، تلك صفاتهم وإن لم يكونوا إلا قراصنة وسفاك دماء ، فلما نبأتهم خبرى ، وأعلمتهم حقيقة أمرى ، وكشفت لهم عن حسبى ونسبى ، ومن كان فى سالف الدهر أبى ، اطمأنوا لى وسكنوا ، ثم دانوا لى وأذعنوا ، وجعلونى زعيما لهم وقريعا ، وكلهم صار لى سميعا مطيعا ، وأحسنوا قراى ، وأكرموا مثواى ، فأكثرت نحوهم مسيرى ومسعاى ، وأدمنت إليهم مراحى ومغداى ، وعلمونى الرماية والنضال ، وصلك النصال بالنصال ، حتى أدركت فى فنون القتال الغاية ، وبلغت فى أساليب الحرب النهاية ، فلو رأيتنى ثمت لرأيت رستم وصهراب ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وعنترة وزيد الخيل ، وربيعة بن مكدم وعامر بن الطفيل ، وأخلصوا لى الوفاء ، ووعدونى قضاء كل حاجة لى ومأرب ولو كان دونه الجوزاء :

جزى الله خيرا طيئا من عشيرة　　ومن صاحب تلقاهم كل مجمع

هم خلطونى بالنفوس ودافعوا　　ورائى بركن ذى مناكب مدفع

وقالوا تعلم أن مالك إن يصب　　نفدك وإن تحبس نزرك ونشفع

والآن لم يبق لنا فى هذا البلد مجال ، وماذا أشنع من اغتصاب أبيك حقك المقدس فى حرية اختيارك الزوج وشريك الحياة ، وأخذهم إياك منى عنوة وقسرا لتكونى زوجة لذلك الفدم الأحمق البليد ، وماذا يضطرنا إلى ذلك - وإنه الموت بعينه - مادمنا على الفرار قادرين ، إن هى إلا وثبة من هذا الشاطئ إلى ظهر السفين ، حتى يذهب عنا البلاء ويبين ، وما هى إلا انحدار على الماء ، حتى يموت

اليأس ويحيا الرجاء ، وإنى أرى شبح الغرام يبتسم لنا ثغره ويتهلل محياه ، وطالع السعد تومىء إلينا بنانه وتلحظنا مقلتاه ، ولقد بنيت لك فى بعض هذه الجزر قصرا كأنه قطعة من الجنة ومن دونك حراس وأرصاد ، أولى بأس شداد ، وعصبة لا ترى فى تجرع الحمام من دون حريمها أدنى حرج ، ويحوطك منهم ويكلؤك أنصار أوفى ذمة من الأوس والخزرج ، ولقد أطلعت هؤلاء الأنصار على ما اعتزمته من الفرار بك إلى جزيرتهم فسروا بذلك أيما سرور ، وقالوا نفديك وخطيبتك بأموالنا وأرواحنا ، ولن تجدا منا سوى عبيد أرقاء ، ولأدنى إشارة منكما رهناء ، وهاك نفرا منهم بذلك القارب القريب من الشاطئ ، فهلمى يا نزهة النفس ، ومتعة الخاطر ، هلمى » .

وقبل أن تجيبه الفتاة لاح ضوء المشاعل فصاحت « انج بنفسك با يزيد فإنى أرى الشر فى هذا الشعاع يستطير » ، وظهر سليمان فى جنوده شاكى السلاح ، شارعى الرماح ، يفتشون وينقبون ، والأمير وسطهم يرغي ويزبد ، ويبرق ويرعد ، واقترب من الغار الجنود ، وثبت بايزيد مكانه خافض الجأش رحب الذراع ، وقال « زليخا قضى الأمر فزودينى قبلة لعلها الأخيرة . زليخا أستودعك الحى القيوم ! آوى إلى الكهف ولا تراعى ، فأبوك أشفق عليك من أن ينالك بسوء ، وإن كنت تخشين على أبيك ذباب صارمى ، فوالذى أعار السحر عينيك ، والجلنار وجنتيك ، ما كنت لأمسه بضر ولو أغمد فى حشاى حسامه » .

ثم كر على الأعداء كرة الليث الغضنفر ، فجندل فارسهم ، وعطف على تاليه فشطره شطرين ، جسما يخفق ، ورأسا يشهق ، ثم عززهما بثالث فبرابع وأحدق به الجند فأثخن فيهم الجراح وأعمل السيف ذات اليمين وذات اليسار ، فلم تر إلا أوصالا تطيح ، ودماء تسيح ، وأشلاء ممزقة ، ومهجا على سيف بايزيد مهرقة ، فاندحر الجنود عنه فتشردوا .

يهزم الجمع أوحد ويلوى بالصناديد أيما إلواء ، ودلف إلى الشاطىء حتى بلغ الساحل وبدا له الزورق الحامل أعوانه ، وصافحت قدماه حافة الماء ، ووافاه الزورق على قدر ، لله در بايزيد ، لماذا لم يثب إلى القارب فينجو ؟ لقد حن قلبه إلى حبيبته فوقف ثم استدار ، يستقبل الغار ، ويستدبر التيار ، واشرأب نظره إلى

الحبيبة ويرى ماذا أصابها ، ولم يصبها بلحظه ولكنما أصاب أجله ولقى حتفه ، إذ أصمت فؤاده رصاصة أنفذته فخر على أكف الموج قتيلا .

زليخا ! إنك لم تشاهدى مصرع بايزيد ، وكيف كنت تشاهدينه وأنت جثة هامدة ، فى سبيل الله يا أطهر الفتيات ، لقد أسلمت روحك الطاهرة حيثما أسلمت بايزيد إلى يد القدر ! وحينما ودعك الحبيب ، ودعك صفو الحياة والنفس الأخير ، وإن من اليأس ما يقتل لحينه ، فرحمك الله رحمة واسعة وأسكنك فسيح الجنان !

تاجر البندقية

كان بمدينة البندقية (فينيسيا) يهودى مراب يدعى « شيلوك » قد جمع من الربا مالاجما ، وكان شديد الحرص ثقيل الوطأة على معامليه ممقوتا لديهم مبغضا إليهم . وكان أحد تجار هذه البلدة المدعو « أنتونيو » على النقيض والعكس من ذلك اليهودى ، يسعف الملهوفين من ذوى الحاجات ولا يتقاضى على ذلك أرباحا ، ذلك إلى ما شئت من رقة ودماثة ورأفة وحنان ، ومن ثم نشأ العداء والبغض بين هذين الرجلين . فكان أنتونيو إذا لقى اليهودى فى الغرفة التجارية أنحى عليه باللائمة وعدد مساوئه ومخابثه . واليهودى يطوى كشحا على تلك المطاعن والأهاجى إغضاء على القذى ، وإساغة للشجى مع إضمار الحقد والضغينة .

وكان لأنتونيو هذا صديق حميم يدعى باسانيو من أشراف المدينة ، قد ورث عن أبيه مالا غير وافر لم يكن يتناسب مع ما تمادى فيه من أساليب الترف والرفاهية ، فما لبث أن بدد أكثره ، وكان أنتونيو لا يزال يمده بكل ما يحتاج إليه لا يدخر دونه شيئا .

فأقبل باسانيو على صديقه ذات يوم فقال له : « لا يخفى عليك يا صديقى أنى طالما أسرفت فى النفقة لأكتسى من أبهة الترف والنعمة ما تقعد بى عنه رقة حالى ونزارة مادتى ، وها أنذا اليوم قادم على أمر ربما كان من ورائه الخير الجزيل والثراء الأوفر . وبيان ذلك إن فى بلدة « بلمون » غانية ذات ضياع وأموال — إلى حسن نادر وأدب فائق وجمال بارع وكنت أزورها لعهد أبيها ، فكانت ربما خالستنى ألحاظها رسائل حب صامتة ، ونجوى شوق خافته ، واسمها بورشيا » ، وما أراها أحقر شانا من سميتها « بورشيا » زوجة بروتاس بطل أبطال الرومان الأشهر ، وما أمرها يا صاحبى بخاف على أهل المشرق والمغرب ، فالخطاب من عظماء الرجال يقصدونها من مهاب الرياح الأربع . وقد أصبحت غدائرها الذهبية أبعد فى الآفاق صيتا وأند شهرة وذكرا من « الجزة الذهبية » ، وبلدتها « بلمون »

ويتنسمون فاغية رضوانها ، فلو كان عندى من المال ما يمكنني من منافستهم ومساجلتهم لألقيت دلوى فى الدلاء وكنت قمينا أن أفوز بالغانية من دونهم . بذلك يحدثني قلبي وينبئني ضميرى .

عندئذ قال أنتونيو : « قد تعلم أن أموالى كلها اليوم فى البحار وعما قريب يرجع إلينا بعض سفائني المشحونة ، فامض بنا إلى اليهودى شيلوك نقترض منه ما يكفيك من المال على ضمان سفنى الغائبة »

ثم مالبثا أن أتيا شيلوك ففاتحاه فى الأمر وكلماه فى أن يقرضهما ثلاثة آلاف « دوكة » بما يقترح من الأرباح على أن يسدد هذا القرض من سفن أنتونيو متى عادت . قال اليهودى فى نفسه « أما لو مكنني القدر من مقاتله لكرعت فى دمه فشفيت منه داء قديما ، وأطفأت جمرة غل أوقدت على كبدى حميما . تباله ، لشد ما يمقت شعبنا المقدس . لقد طالما هزأ بى وسخر فى أحشد المحافل من كسبى الحلال يسميه ربا . فلعنني الله لعنة أبدية إن غفرت له ذلك » فلما رآه أنتونيو كأنه يناجى نفسه وقد انصرف عنهما مليا قال له « انتبه إلى يا شيلوك هلا أقرضتنا ذلك المبلغ ؟ » فأجاب شيلوك « أيها السنيور أنتونيو . كم من مرة بالغرفة التجارية أوسعتني سبابا من جراء مكاسبى فاحتملتها منك على مضض ، وكان احتمال الأذى شعار أمتنا . إنك لتنبذنى بالألقاب تدعونى جهنميا وكافرا وشيطانا وكلبا وسفاكا للدماء سفاحا ، وتبصق على ردائى وإنه لشعار أمة إسرائيل ، وكل ذلك من أجل تصرفى فى مالى وملك يدى . والآن إذ أصبحت بحاجة إلى تجيئنى فتقول « شيلوك إنى إلى مالك لمحتاج - تقول لى هذا ، أنت الذى كنت تبصق على لحيتى وتركلنى برجلك كما تركل الكلب الفار من دارك ، بماذا أخاطبك الساعة ؟ ألست خليقا أن أجيبك قائلا « أيكون للكلب مال ؟ أيستطيع الكلب أن يبذل ثلاثة آلاف دوكة ، أم ترانى أخضع لك وأركع ، وبلهجة العبد الذليل أقول لك بصوت غضيض ونفس قطيع « مولاى ! لقد بصقت على يوم الأربعاء ، ورمحتنى بقدمك يوم الثلاثاء ، ودعوتنى كلبا تارة وأخرى وحشا مفترسا ، ومن

أجل هذه المبرات والحسنات الطيبات أقدم إليك من المال ما تطلب »

قال أنتونيو « وما أجدرني أن أعيد عليك الكرة فأبصق عليك وأركلك بقدمى . لا تقرضنى المال على أنى صديق لك بل عدو ويستحق منك أشد الجزاء إن أخلف معك ميعاده »

قال شيلوك « مهلا مهلا ولا تغضب . تالله ما أردت سوى مصافاتك ومنوالاتك . وبعد فلأصفحن عن كل ما نلتنى به من مساءة ، ولأطوين صحيفة الماضى ثم لن آخذ منك أرباحا . أفلا يرضيك هذا على حسن نيتى دليلا ؟ أمض بنا إلى أحد كتاب العقود ولنحرر على سبيل المزاح والفكاهة صكا مضمونه إنك إن عجزت عن دفع القرض فى موعد مضروب ، كان لى أن أقتطع من لحمك رطلا اختاره من أى موضع فى جسدك »

قال أنتونيو « إنى أقبل ذلك وأشهد بعد ذلك أن اليهودى على جانب عظيم من البر والمروءة »

عندئذ تدخل فى الأمر باسانيو فقال : « كلا والله ما كنت لتوقع على مثل هذا الصك من أجلى »

قال أنتونيو « عجبا لك ! ما أحسب الأمر بالغا بى أن أخسر هذا القدر من جسدى . فما هى إلا أيام حتى يحصل لدى أضعاف هذا المبلغ فما خوفك ؟ »

وقال شيلوك « يالإسرائيل لهؤلاء النصارى ، لقد أصبحوا لفرط قسوتهم يتهمون الأبرياء بسوء النية . أرأيت لو أخلف السيد أنتونيو ميعاده ماذا كنت مستفيدا من رطل لحم من جسده . أليس لحم الضأن والماعز ألذ نكهة ومذاقا من لحم الإنسان وأرخص ثمنا ؟ إنى أبذل له ودى ابتغاء مرضاته فإن أحسن بى الظن فمرحبا وإلا فسلام عليكما » وانتهى الأمر بتوقيع أنتونيو على الصك بالرغم من معارضة باسانيو » وقد حسب أنتونيو أن الأمر لم يعد مجال المزح والدعابة.

ولما تزود باسانيو بالمال المقترض من شيلوك على تلك الشروط الخطرة ، انطلق من توه إلى قصر بورشيا ـ تلك الوارثة الحسناء ـ ببلدة بلمون ، وصحبه فى رحلته صديق له يدعى « جراشيانو »

كان والد الفتاة بورشيا قبل وفاته آلى على ابنته أن يكون زواجها بطريقة القرعة

صورتها ، واشترط عليها أن لا تتزوج إلا من يختار الصندوق المشتمل على الصورة . فجعل الأمراء والفرسان يتوافدون عليها من أقاصى الأرض يخطبونها ، فتقدم الصناديق ليختار الخاطب منها ، فما من أحد أصاب المرمى وكلهم عاد بالفشل والخيبة .

وبينما الفتاة بورشيا تحادث خادمتها نيريسا ذات يوم فى غرفتها أنبأها الحاجب أن فتى من فينسيا قد حل بساحة القصر خاطبا ، فقالت بورشيا هلمى بنا نيريسا إن قلبى ليتوق إلى رؤية هذا القادم » فقالت نيريسا ليته باسانيو ! إله الحب أسأل أن يكون باسانيو ! »

ولما استقبلت بورشيا ونيريسا صاحبنا باسانيو وصديقه جراشيانو بغرفة الاقتراع ، كان أول ما فاهت به بورشيا لخاطبها الجديد « ناشدتك الله يا سيدى ألا ما تمهلت يومين أو ثلاثة قبل المجازفة ، فإنك إن أخطأت الهدف خسرت صحبتك أبد الآبدين . إن فى قلبى لهاتفا يناجينى إنه لا ينبغى أن أخسرك . ألا بعدا لهذه الأقدار القاسية لقد حالت بين الحق وصاحبه »

قال باسانيو « دعينى إلى حظى وقسمتى ، فإنى والحال هذه على مضض »

قالت بورشيا على مضض من الجلوس معى ؟ خبرنى ياباسانيو ، أى شائبة غدر تشوب حبك لى ؟ »

قال باسانيو « حاش لله لن يشوب الغدر حبى إلا إذا صح أن يشوب الثلج النار ، والليل النهار ، ولكن هلمى بنا إلى الصناديق الثلاثة فقد عيل صبرى » ..

وهنا يرفع ستار صفيق عن الصناديق الخطيرة وتقول بورشيا « هذا مضمار القدر فانتبه أيها الفارس المغوار إلى قصب السبق وأقصى غاية المراد ، وتعلمن لئن كنت تحبنى حقا فهداك إلى صورتى كوكب الحب ذو الطالع المسعود فى دياجير الشك القاتمة . أيها الغلمان تنحوا جانبا وأطلقوا نغمات الموسيقى ريثما يختار ، فلئن خاب وأخفق ، كان فى خاتمة أمره أشبه بطائر الماء يلفظ آخر أنفاس الحياة وهو يصدح بالهديل ويترنم ، وتكون عينى الباكية له إذ ذاك ضريحا مائيا وقبرا متدفقا لجيا ، وإذا فاز فما الموسيقى إذن إلابشير الظفر والفلاح تحية الرعية لمليكها المتوج ، وتكون تلك النغمات كألحان بلابل الأسحار ، وعزفات النسائم على

عذبات الأشجار ، توقظ العروس من أحلامه لشعائر الزفاف والسعادة »

وهنا تصدح الموسيقى ريثما يبدى باسانيو آراءه عن الصناديق الثلاثة ، فيقول يخاطب الصندوق الذهبى « يا طالما كذبت الحقائق المظاهر ، وناقضت السرائر الظواهر ، ويارب شوهاء في حشا حسناء ، وخشناء فى غمد ملساء ، وكم من هيابة رعديد ، يستشعر جرأة البطل الصنديد ، وكذلك الزينة والزخرف إن هى إلا ساحل لبحر كله أهوال وأخطار ، وأحبولة تنضب لأولى الألباب والأخطار . لذلك أرفضك أيها الذهب المشرق ، وأرفض معك اللجين المتألق ، وأختارك أيها الرصاص المتواضع وإن كنت بالنذير ، أشبه منك بالبشير . إن فى كسوف مرآك ، وشحوب مجتلاك ، ما يحرك منى ما لايحركه النضار النضير ، واللجين المنير »

فصاحت بورشيا إن هواجسى لتتبدد في عاصفة هذا السرور ، وإن وساوسى لتنهزم كجيوش الظلماء أمام جحافل النور . أعطوه مفتاح الرصاص »

وهنا يتقدم باسانيو إلى الصندوق الرصاصى فيفتحه فيجد صورة بورشيا فيقول « ماذا أرى ؟ صورة الحسناء بورشيا ! لقد كاد المصور أن يشارك الخلاق فى صنعته .

وعينان قال الله كونا فكانتا　　　فعولان بالألباب ما يفعل السحر

أحركة فى هاتين العينين ، أم هما قد جلستا فوق عينى فمن ثم تتحركان ! وهذا الثغر الوماض

كأنما تبسم عن لؤلؤ　　　منضد أو برد أو أقاح

لقد فرقت بين ياقوت تينك الشفتين ، ولآلىء ذينك السمطين . أحلى أنفاس معسولة الجنى لا جرم ، فما كان ليفرق بين أشهى توأمين سوى أحلى حجاب ! قاتل الله المصور ، لقد نسج من طرتها الصهباء أبدع شبكة تقتنص العقول احتبالا ، وتختلس المهج والقلوب اختبالا . ولكن كيف ترى الأصل قد فاق الصورة فبهرها كما تبهر الشمعة جمرة النهار ، ويسبق السابح الماهر من أوشك على الغرق فى لجة الزخار . »

وينظر فى الصندوق فيجد رقعة فيتناولها فإذا بها :

« يا من لا تغره القشور ، ولا ينخدع بالضلال والزور . اغتبط بالقسمة

والمقدور ، ولا تبغ به بدلا حتى تواريك القبور . لقد سعى عليك الحظ بأكواب الحبور ، ودون لك القلم في أم الكتاب أيمن سطور . فإن كنت بنصيبك ذا سرور ، فارشف من رضاب أعذب الثغور ، شفاء الغلة وبرد الصدور »

وهنا يقبل بورشيا ويقول « إني لفرط غبطتي لا أكاد أعرف أفي يقظة أنا أم في منام أحلام ، وهذه حقيقة أم خيالات أوهام ، وكذلك لن يقر لى قرار ، حتى أفوز منك بإقرار » .

قالت بورشيا « إنى ملك لك على أنى أراك إذ ظفرت بى لم تظفر بنفيس ولا جلل ، فلست سوى فتاة غير عالمة ولا مهذبة ، ولا ذات أدب بارع ولا لب رائع ، ولكنى قابلة لتأديبك وتهذيبك ، أصغى لإرشادك ، وأذعن لاقتيادك ، وأراك سيدى وحاكمى ومليكى ، وإنى وما ملكت يداى رهن إشارتك ، وطوع بنانك ، فقصرى وضيعتى ، وعقارى وثروتى ، وحاشيتى وبطانتى ، أقدمها جميعا إليك مع خاتمى هذا ملكا لك مباحا ، وإياك أن تفرط فى هذا الخاتم فإن ذلك منك غدرا صراحا » .

فقال باسانيو « سيدتى لقد قطعت لسانى ، وسلبت بيانى ، فليس يخاطبك منى سوى دمى فى شريانى » .

وهنا قال جراشيانو صديق باسانيو « أسأل الله أن يسبغ عليكما من النعم والآلاء ، ما لو وزع على أهل الأرض لم يبق على أديمها أسوان ، ولأصبحت الأحزان أسماء بلا معان . بيد أنى أرجو متى شرعتما فى إقامة شعائر القران أن تأذنا لى أنا أيضا فى الزواج ... »

قال باسانيو « أجل متى وفقت إلى زوجة » قال جراشيانو « أشكرك يا سيدى فلقد حصلت لى أنت على زوجة ، ولا يخفى عليك أنك إذ أحببت السيدة أحببت أنا الوصيفة ، ولما عولت وصممت ، عولت مثلك وصممت ، وكما كان حظك على الصناديق الثلاثة موقوفا ، كان حظى مثلك بها رهينا . ولقد والله أنضيت لسانى ، وأنقدت جعبة بيانى ، في استرضاء الفتاة نيريسا واستمالتها ، واستدرار سحب عطفها واستذابتها ، إلى أن أبت منها بوابل ، وبؤت منها بطائل ، بعد أن تحلب عرقى ، وجف سقف حلقى ، وقد وعدتنى خيرا متى فزت أنت بالخير

بطائل ، بعد أن تحلب عرقى ، وجف سقف حلقى ، وقد وعدتنى خيرا متى فزت أنت بالخير من مولاتها .

فوافق باسانيو وبورشيا على هذا .

وبينما هم فى ذلك دخل عليهم رسول يحمل صحيفة من أنتونيو . فلما فضها باسانيو وأخذ يتلوها اربد وجهه ، فأوجست بورشيا شرا وسألته ما خطبه ، فقص عليها حديث صاحبه أنتونيو وما كان من اقتراضه من اليهودى شيلوك ماسد به عوزه ، وأعانه على الرحلة إليها ، وما كان من إخطاره حياته على نحو ما تقدم شرحه من أمر ذلك الصك الدموى إلى آخر ما سلف تبيانه ، ثم ختم مقاله بتلاوة الرسالة الآتية :

« صديقى الحميم باسانيو . لقد أغرقت سفنى برمتها ، وتنمر لى الغرماء واستأسدوا ، ولقد ساءت حالتى ، ونضب معين مادتى ، وحل موعد السداد ولا سداد . وإذ كان الوفاء بعد اليوم لن يكون إلا من دمى وفيه حتفى ، فإن فى نظرة إليك أزودها قبل موتى لعوضا عن كل ما أصابنى . وعلى أية حال فالأمر فى ذلك إليك ، فإن أبت حبيبتك هذا اللقاء ، فلا تجعلن من رسالتى هذه ذريعة إليه وسببا »

قالت بورشيا « وكم على صاحبك لليهودى؟ ».

فأجاب باسانيو « ثلاثة آلاف دوكة ؟ »

قالت بروشيا « فقط! ادفع إليه ستة آلاف ، اثنى عشر ألفا ، أربعة وعشرين ألفا ، ومزق ذلك الصك بمثل هذا المبلغ وأضعاف أضعافه . يجب أن نفتدى أدنى شعرة من جسد أنتونيو . اذهب توا إلى فينسيا ، فتالله لن يحتويك وزوجك فراش حتى يبرأ ضميرك من كل شائبة ، وسنزودك من الذهب بعشرة أضعاف هذا الدين . ومتى قضيته فعد إلينا بصاحبك ، وفى أثناء غيبتك أعيش ونيريسا عيشة الأرامل والعذارى »

ولما عاد باسانيو وجراشيانو إلى فينسيا ألفيا أنتونيو فى غياية السجن .

فعرض باسانيو على شيلوك المبلغ المطلوب فأبى إلا تنفيذ شروط الصك واقتطاع رطل من لحم أنتونيو . وأخيرا حددت جلسة للاحتكام فى هذه القضية المنكرة

جمر الغضا ..

أقبلت بورشيا بعد ذهاب زوجها باسانيو تتدبر تلك المعضلة العويصة ، وتقلب وجوه الرأى لاستنباط حيلة تخلص بها أنتونيو . وكانت بورشيا نادرة دهرها ، وبكر زمانها ، إربة ودهاء ، وفطنة وذكاء ، وكانت تخفى خلف منظرها الغض الرقيق عزيمة الأبطال ، وتطوى تحت مظهرها الحلو الأنيق صرامة صناديد الرجال . فعولت على أن تذهب إلى فينسيا وتحتال حتى تقعد على كرسى القضاء ، ثم تتولى بنفسها الحكم فى تلك القضية .

وكان من بين أقاربها رجل يشغل منصب مستشار قضائى فى محاكم فينسيا يدعى بيلاريو . فأرسلت إليه بيانا عن القضية وعن رغبتها فى أن تجلس بنفسها على منصة القضاء للفصل فى ذلك المشكل ، واستمنحته نسخة من قانون البلاد وحلة من ملابس المحامين .

فما لبث أن عاد إليها الرسول بكل ما طلبت . حينئذ تنكرت هى ونيريسا فى زى الرجال ، وارتدت طيلسان القضاء ، واستصحبت وصيفتها بمثابة كاتب لها . وكذلك أسرعتا إلى فينسيا فبلغتاها يوم المحاكمة .

وبينما الجلسة منعقدة والدوق على كرسى القضاء من حوله أساطين القانون ومداره فى دار الشيوخ ، إذ دخلت عليهم بورشيا فقدمت إلى الدوق كتابا من المستشار بيلاريو يعتذر عن الحضور لمرض أصابه ويرجو قبول الأستاذ بلساذار « هكذا أسمى بورشيا » لينوب عنه فى الدفاع عن المتهم . فقبل الدوق ذلك متعجبا من حداثه سن ذلك القادم الغريب .

وحينئذ ابتدأت تلك المحاكمة الخطيرة العجيبة الشأن .

وأجالت بورشيا نظرة فى المجمع الحافل ، فأبصرت اليهودى الغليظ القلب ، وأبصرت باسانيو ولكنه لم يعرفها ، وكان واقفا إلى جانب أنتونيو يكاد يغمى عليه جزعا على صاحبه .

وكانت رهبة الموقف العظيم قد ضاعفت جرأة الفتاة وشحذت من صرامتها وبأسها ، فخاضت من ذلك المأزق حومته كالكمى المدجج ، وجابت حلكته كالكوكب المتوهج .

ويقول الدوق لبورشيا مرحبا أيها الأستاذ الجليل ، خذ مكانك . أتعرف المشكل الذى تقوم حوله الخصومة ؟ »

بورشيا « أعرفه بحذافيره . أين اليهودى والتاجر » ؟ » قال الدوق « شيلوك وأنتونيو ! تقدما ! »

بورشيا إلى أنتونيو « إنك لمهدد بأعظم الخطر . أتعترف بصحة العقد ؟ » أنتونيو « نعم أعترف » بورشيا « إذن فالرحمة على اليهودى واجبة »

فيقول شيلوك « من أين هذا الوجوب ؟ »

بورشيا « الرحمة عاطفة سمحاء ، وسحابة وطفاء ، تسمح بالغيث العميم ، بلا قسر ولا ترغيم ، وتكسو المجدب والعديم ، ثياب النضرة والنعيم ، وهى مزدوجة الخير ، مضاعفة الإحسان والبر ، مبارك فيها للواهب والموهوب ، مغمور بنعمائها المثيب والمستثيب ، وهى أغزر ما تفيض من الأغزر فضلا ، وأوفر ما تجئ من الأوفر قوة وحولا ، وهى فى الملوك أبهى رونقا من التيجان ، وأسنى جلالا من الصولجان ، فالتاج حلية الجبين ، والرحمة حلية الروح الأمين ، وذاك موضعه الرءوس ، وتلك موطنها النفوس ، وأصلها فى سواد القلوب مغروس ، وهى شيمة الرب المعبود ، وسجية الغفور الودود .

فيأيها اليهودى تعلم أننا إذا نفذنا عدالة القانون ، فكلنا فى الإثم والخطيئة واقعون ، ولغضب الله مستنزلون . فنحن جميعا نتوسل إليك أن تتوخى بعفوك طيبات الخلال ، وصالحات الأعمال » .

شيلوك : « على رأسى وحدى عواقب خلالى وأعمالى . لا أطلب إلا تنفيذ القانون » .

بورشيا : « أليس المدين قادرا على السداد ؟ » .

بأسانيو : « نعم وها أنا ذا مستعد أن أدفع عشرة أضعاف المبلغ ، فإن عجزت فاقطعوا رأسى وأوصالى . فإن أصر اليهودى بعد ذلك على عناده فتلك والله هزيمة الحق على يد الحقد والضغينة ، وإنى أتضرع إلى المحكمة أن تشذ عن سنن القانون مرة واحدة ، إذ لا بأس من التذرع بالخطأ اليسير إلى الصواب الكثير » .

بورشيا : « هذا لا يمكن أن يكون بحال ، إذ انتهاك حرمة القانون من المحال ».

بورشيا « هذا لا يمكن أن يكون بحال ، إذ انتهاك حرمة القانون من المحال »

شيلوك : « جزاك الله عن الشريعة والعدالةِ خيرا بما قد رأبت من صدعها ، ورتقت من فتقها ، وآسيت من جرحها . حقا لقد أخذ القوس باريها واستوى على أريكة العدل دنيالها . »

بورشيا : « أطلعنى على العقد »

شيلوك : « ها هو ذا يا سيدى »

بورشيا : « هذا العقد قد فات ميعاده ، وقد استحق اليهودى رطل لحم يفتلذه مما يلى قلب التاجر أنتونيو . رحماك يا شيلوك ، مزق العقد وخذ ثلاثة أمثال مبلغك . »

شيلوك :« إنى أستحلفك بحرمة الشريعة الغراء إلا ما نفذت نص القانون » .

أنتونيو : « إنى أتضرع إلى المحكمة أن تنفذ القانون كما ينبغى »

بورشيا : «إذن فلتقد من صدرك لسكين اليهودى».

شيلوك : « لا فض فوك يا عدل القضاة »

بورشيا : « هذا العقد شرعى فى نظر القانون وما نص عنه من غرامة نافذ شرعا وقانونا » ..

شيلوك « كلامك الحق ومقالك الصدق . إنك لا تنطق عن الهوى »

بورشيا : « وبناء على ذلك فلتحسرن عن صدرك يا أنتونيو ، ههنا ميزان لزنة اللحم ؟ »

شيلوك : « هاكم الميزان » .

بورشيا : « أحضر جراحا على نفقتك يا شيلوك لحبس نزيف الدم لئلا يتسبب عنه وفاة المدين »

شيلوك : « أو قد نص العقد على ذلك ؟ »

بورشيا : « لم ينص ، ولكن ذلك يكون على سبيل الرأفة » ..

شيلوك : « على المحكمة أن تنفذ ما فى العقد لا تعدوه ولا تتجاوزه »

بورشيا : « استعد أيها التاجر، ألديك شىء تقوله ؟ »

لست على ما جرى بآسف إذ كان من أجلك . فاذكرنى بخير عند أهلك ، وارثنى لها بما أنا أهله ، وقل لها كنت خلك الوفي ، وخدنك الصفى ، وحميمك الولى ، ولا تجزع لفراقى كما لست أجزع لحمام ألقاه قياما بالواجب » .

باسانيو : « إن لى زوجة أعز على من روحى ، ولكن روحى وزوجتى فداء لك ، وضحية أجود بها لإنقاذك من مخالب هذا الشيطان » .

بورشيا : « لبئس ما جزيت زوجتك على حبها ووادها بتقديمها ضحية وقربانا. ولو كانت حاضرة لما سرها أن تسمع منك ذلك » .

جراشيانو : « ولى أيضا زوجة كنت أود لو تذهب إلى جوار ربها لتسخر من الملائكة من يهبط على ذلك الفاجر فيلين قلبه الأصم » .

نيرايسا : « لو كانت زوجتك حاضرة لأثار هذا الكلام منك عاصفة الشر بينكما »

بورشيا : « أنت تعلم يا أنتونيو أن لليهودى فى بدنك رطل لحم يسوغه القانون وتقضى به المحكمة »

شيلوك « مرحى مرحى يا سيد القضاة وإمام العدالة .. »

بورشيا : « ولك يا شيلوك أن تأخذ هذا الرطل مما يلى قلبه . بذلك يقضى القانون وتحكم المحكمة » .

شيلوك : « مرحى مرحى يا أعلم العالمين وأفضل العالمين . تقدم للتنفيذ تقدم »

بورشيا : « تمهل قليلا يا شيلوك ، لقد فاتتك مسألة فيها نظر ، هذا العقد لا يبيحك قطرة دم واحدة ، فخذ رطلك واعلم أنك إن أرقت قطرة واحدة من الدم النصرانى أصبحت ضياعك وأموالك بنص شريعة البلاد غنما طيبا حلالا لحكومة فينسيا » ..

جراشيانو : « مرحى يا أعلم العالمين وسيد العالمين ، التفت يا شيلوك ، إنما أردد كلماتك » ..

شيلوك : « أذلك هو القانون ؟ » .

بورشيا : « أجل ، وسأريك من آيات العدالة فوق ما تطلب ».

جراشيانو « مرحى مرحى يا شيلوك » .

شيلوك « رضيت اقتراحك الأول ، أعطنى ثلاثة أمثال المبلغ » .

باسانيو « ها هو المال » .

بورشيا : رويدا رويدا ، سينال اليهودى أقصى العدالة » .

جراشيانو « مرحى يا إمام العدالة ! » .

بورشيا : « استعد لأخذ رطلك من اللحم ، وإياك أن تهرق قطرة دم أو تأخذ أكثر أو أقل من الرطل ولو مثقال ذرة ، وإلا فالإعدام جزاؤك ومصادرة الحكومة كل أموالك . » .

جراشيانو : « لقد أخذ القوس باريها ، واستوى على أريكة العمل دانيالها . بشراك ياشيلوك وهنيئا لك . لقد جثم عزرائيل على منافسك وأخذ الحمام عليك بالمرصد » .

بورشيا : « ما بالك تتوقف أيها اليهودى ؟ اقتطع رطلك » .

شيلوك : « أعطونى رأس المال وأطلقوا سبيلى » .

باسانيو : « ها هو ذا » .

بورشيا : « كلا ، لن ينال والله سوى العدالة » .

جراشيانو : « لقد جلس على كرسى القضاء دانيال ، فيا حبذا دانيال وقضاؤه . أشكرك يا شيلوك إذ علمتنى الأمثال أضربها عند الحاجة » .

بورشيا : « أيها اليهودى ، وإن للقانون عليك سلطانا آخر . ذلك لأنه إذا ثبت على أجنبى أن حاول مباشرة أو بغير مباشرة اغتيال حياة وطنى ، فلهذا الوطنى أن يأخذ نصف أموال الجاني ، وللحكومة روحه والنصف الباقى . فأما أموالك فقد ذهبت كما أبنت لك ، وأما روحك ففى يد الدوق ، إن شاء اقتضى ، وإن شاء عفا » .

جراشيانو : « أما ولم يبق من مالك ما تشترى به مشنقتك ، فلم يبق إلا أن تشنق على نفقة الحكومة » .

الدوق : « لأريك فرق مابين فعالنا وأفعالك ، قد وهبت لك روحك . أما

أموالك فقد قضى الأمر فيها ... نصفها لأنطونيو ، ونصفها للحكومة » .

شيلوك « وما عيشى بعد ثروتى ؟ وأى العيش يصلح بعد مالى ؟ خذوا روحى أيضا » .

وهنا تبرع أنطونيو بنصيبه لشيلوك ، على شرط أن يحرر اليهودى عقدا بالنزول عنه بعد وفاته لابنته « باسيكا » ، وكان قد حرمها ميراثه لتزوجها رغما منه بالفتى النصرانى « لورنزو » صديق أنطونيو .

فقبل اليهودى ذلك ، ثم استأذن فى الانصراف ، وإنه ليوشك أن يموت كمدا .

قال الدوق : « اذهب وسنبعث بالعقد وراءك لتمضيه ، وإذا بدا لك أن تندم على ما فعلت وتتنصّر ، تجاوزت لك الحكومة عن نصف أموالك » .

ثم انفضت الجلسة .

وشكر الدوق المحامى الصغير ، وأثنى على ذكائه وعلمه ، ودعاه للغداء معه فأبى ، وكانت بورشيا تريد أن تسرع العودة إلى قصرها قبل إياب باسانيو ، فأسف الدوق واقترح على أنطونيو أن يحسن جزاء المحامى الصغير إذ كان مدينا إليه بحياته .

ولما مضى الدوق والقضاة ، أقبل باسانيو على بورشيا فقال لها « لقد نجيتنا اليوم من الهلاك أيها العالم النحرير ، فأيسر ما نجزيك به على حسن صنيعك الثلاثة الآلاف التى كنا سنعطيها اليهودى . فخذها بورك لك فيها » ..

بورشيا : « لقد أصاب جزاءه ، من أصاب شفاءه ، ولقد شفيت نفسى بإنقاذ أنطونيو ، فكان ذلك أوفر جزاء وأوفاه ، وسلام عليكما » .

باسانيو « سيدى الأجل . لا يسعنى إلا إلزامك أخذ شىء يكون تذكارا منا على جميلك ، فلا ترفض » .

بورشيا : « أعطنى هذا الخاتم . لا تقبض يدك . لا آخذ سواه ، وما أراك باخلا علىّ به »

باسانيو : « هذا الخاتم يا سيدى ؟ واخجلاه ! إنه لأخسّ قيمة من أن يهدى

لمثلك »

بورشيا : « وأنا لا أقبل غيره » .

باسانيو : « إن لهذا الخاتم لشأنا . اذهب بنا إلى صاغة فينسيا فانتق ثمت أغلى خاتم وانظر هل نبخل به عليك . أما هذا فأعرض عنه واقبل فيه عذرى »

بورشيا : « سيدى ، ما أجود لسانك بالوعود ، وما أبخل يداك بالموعود ».
باسانيو : « هذا الخاتم هدية زوجتى ، وقد عاهدتها على أن لا أفرط فيه لا هبة ولا منحة » .

بورشيا « هذه علة البخيل عن الكرم » .

أنطونيو : « أعطه الخاتم يا صديقى وكفى بمعروفه إلينا عذرا تقدمه لزوجتك »

فاستسلم للقضاء باسانيو ، وأعطى بورشيا الخاتم . وكذلك احتالت نيريسا حتى أخذت خاتمها من أصبع جراشيانو .

ثم انطلقت الآنستان إلى « بلمون » فدخلتا بستان القصر ولبثتا به تنتظران زوجيهما . وما هى إلا سويعة حتى دخل عليهما باسانيو وجراشيانو وأنطونيو ، فقدم باسانيو صديقه إلى زوجته بورشيا . وما كادت تنتهى عبارات التحية والترحاب والتهانى ، حتى رؤيت نيريسا وزوجها يتشاجران فى ناحية من البستان .

قالت بورشيا : « أشجار وعراك ولما تمض لحظة ؟ ماذا جرى ؟ » .

جراشيانو : « من جراء حلقة من الذهب ، خاتم ضئيل القيمة » .

نيريسا : « مالك ولقيمته ؟ لقد حلفت لى لن يفارق أصبعك حتى تموت . فلمن أعطيته ؟ »

جراشيانو: « والله ما أخذه إلا صبى المحامى ، وهو غلام فيه منك ملامح ، وقد ألح على فيه حتى أخجلنى »

بورشيا : « أنت الملوم على كل حال . لقد أعطيت زوجى خاتما ، وما كان ليهبه ولو أعطى فيه الأرض وما عليها » .

عندئذ قال باسانيو يحدث نفسه « من لى بأن أقطع ذراعى فأقول إنى فقدت الخاتم معه ، وأنا أدافع عن حياتى فى معركة دموية ؟ »

قال جراشيانو : « إن سيدى باسانيو أعطى خاتمك للمحامى نفسه » .

بورشيا : « أى خاتم أهديت يا سيدى ؟ أرجو أن لا يكون خاتمى » .

باسانيو : « خاتمك يا سيدتى ، ولكن على الكره والرغم منى . لقد غلبت فيه على أمرى » .

بورشيا : « لقد أقفر من الوفاء قلبك ، ولعمر الله لن أزوج منك حتى ترينى خاتمى » .

نيريسا : « وأنا أيضا لن أزف عليك حتى ترينى خاتمى »

باسانيو : « مليكتى الحسناء ! أما والله لو علمت لمن أهديت الخاتم ، ومن أجل من أهديت الخاتم ، وبأى حسرة وحرقة أهديت الخاتم ، حين لم يك يقبل شيء سوى الخاتم ، إذن لعذرتنى واغتفرت زلتى »

أنطونيو : « ويلى » أنا أصل هذا النفار ، وسبب ذلك الشجار »

بورشيا : « لا بأس عليك يا سيدى ولا حرج »

باسانيو : « سامحينى هذه المرة ، وأعاهدك أن لا أعود لمثلها ما حييت »

أنطونيو : « كما خاطرت بحياتى قبل اليوم ، أخاطر بها الآن فى سبيل ضمانته لديك »

بورشيا « قبلت ضمانتك . أعطه هذا الخاتم (وانتزعت خاتمها من خنصرها) ومره أن يكون به أشد احتفاظا »

باسانيو : « يمين الله إنه عين الخاتم الذى أهديته المحامى »

بورشيا : « لقد أخذته منه ، فمعذرة يا باسانيو »

نيريسا : « ومعذرة يا جراشيانو ، فلقد أخذت هذا الخاتم من صبى المحامى »

بورشيا : « أراكم أجمعين فى دهشة وحيرة . هاك رسالة — تقرؤها فى فراغك — من الأستاذ ملاريو ، وستجد بها أن بورشيا كانت هى نفس المحامى الصغير ، ونيريسا كاتبه ، وستشهد خدام القصر أنى برحته على إثرك ولم أعد إليه إلا قبل مجيئك الآن بساعة . أما أنت يا سيدى أنطونيو فعلى الرحب والسعة . لقد حللت أهلا ، ولقيت سهلا ، وعندى لك بعد نبأ عظيم . ففى هذه الرسالة

تجد بها أن ثلاثا من سفنك قد وصلت الميناء سالمة غانمة » .

أنطونيو : « لساني يعجز عن شكرك » .

باسانيو : « أكنت المحامي ثم لم أعرفك ؟ » .

جراشيانو : « وكنت أنت الكاتب ؟ » .

أنطونيو : « لقد وهبتني الحياة والعيش معه ، فهذا نبأ صريح أن سفني قد وصلت » .

بورشيا لقد لاحت تباشير الصباح ولم تستوفوا الحديث ، فادخلوا بنا نستريح ، وسأفضي عليكم بكل ما كان » .

جراشيانو : « هلموا بنا ، لست ما حييت لاقيا من صنوف العناء ما هو أشق وأصعب من حمل خواتم النساء » .

ريحانة الموت

لهفى عليكما أيها العاشقان ، تبيتان من الشوق فى تعب ، وتصبحان من الوحدة فى نصب ، كلما بزغت الشمس زاد الشوق اضطراما ، وكلما غربت تضاعف احتداما ، فكان شخصها البديع ماثلا لعينيه أينما كان ، وأذنه لا تكاد تخلو لحظة من صدى صوتها الرنان .

وكانت هى ثملة سكرى من حميا هواه ، تشرب من دمعها السجم وتنشق عبير ذكراه ، وإذا حركت أوتارها فباسمه تعزف ، وإذا تناولت منسجها فباسمه تفسد التطريز وتتلف .

وإذا طرقت عليه الباب علم من الطارقة قبل أن يسلمها الباب لناظره الجائع الظمآن ، وهي من خلال نافذتها تراه من أقصى مكان ، وكان يسهر الليل الطويل فى أشجان وأتراح انتظار أن يسمع خطوات قدمها الوثابة فى الصباح .

على هذه الحال الأليمة تصرمت أشهر الربيع ، ثم طلع الصيف بنضرته على نضرة جمالهما ذابلة ، وتجلت بهجته على بهجة حسنهما حائلة ، وجعل كل منهما يسر حديث عشقه إلى النجمة الساهرة ، والنسمة الخاطرة .

وأقبل الفتى على وسادة القلق يناجيه بلسان الدمعة الهامية ، والزفرة الحامية يقول « لا طلعت على شمس الغد إذا أنا لم أسمع قبل مطلعها ، نغمة الغرام من شفتها اللعساء ، فتالله لن يبوح الشرق بأسرار الضياء حتى أكون قد بحت لحبيبتي ، بأسرار لوعتى »

ـ وعلى ذلك استمرا حتى أبصر الفتى « لورنزو » وجنة « إيزابلا » قد علاها صفرة البهار مكان حمرة الشقيق ، وانطفأ من لحظها الفتان لألاء الماس ومن شفتها اللمياء جمرة العقيق ، وعراها هزال كهزال الأم الساهرة على رضيعها تسكن آلامه ، وتخفف سقامه .

وناجى الفتى نفسه :

« ما أسوأ حالها ، وما أسرع هزالها ، فلئن كانت الوجوه عناوين القلوب — كما يزعمون ـ فلا مراء أن وجه حبيبتى لينم عن أعظم الأنباء ، وأعضل الأدواء ،

فلو أتيح لى أن أشرب دمعتها ، واكشف غمتها ، لخف ما بى وقل مصابى .

* * *

أصر « لورنزو » ذات صباح على مكاشفة الفتاة ، فلبث طول يومه خفاق الأحشاء قلق الجوانح يسأل الله حسن المعونة على النطق والإفصاح ، ولكن لسانه ما برح فى أغلال الهيبة مأسورا ، وما انفك قلبه فى قبضة الوجد والطرب مقهورا ، وفطنت الفتاة إلى سره ففاتحته القول ونار الغرام فى خدها تلتهب التهابا ، ولكنها لم تزد على أن قالت « لورنزو » واعتقل لسانها ، غير أن الفتى قرأ صحيفة سرها فى هذه الكلمة المفردة ـ فى نبرات لفظها ، ولمحات لحظها .

فقال لها :

« إيزابلا ! ماذا علي وعليك أن أبثك أحزاني وأشجانى ، فإن كنت تؤمنين فى هذه الدنيا بشيء فآمنى بحبى وصبابتى . وبأنى أشفيت من وجدى بك على الردى . معذرة ياشقة النفس ، وتوأمة الروح ، أنا لا أجرؤعلى مس يدك الطاهرة خشية أن تؤذيها أناملى ، ولا أجرؤعلى النظر فى عينيك خشية أن تنكر لحاظك لحاظى ، ولكنى لا أستطيع البقاء ساعة أخرى ما لم أجهر لك بسريرة صبابتى »

وهنا اجترأت شفتاه فامتزجتا بشفتيها وتسلسل بين الشفاه الملتهبة حديث الهوى الصامت المعسول ، وتحققت للعاشقين أمنية القائل :

عندى رسائل شوق لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

لقد ظفر العاشقان بلذة العمر ، ومتعة الدهر واخضرت بينهما السعادة وأورقت ، غناء حالية ، ظلالها ضافية ، قطوفها دانية .

* * *

كذلك افترق العاشقان وكأنهما لفرط السرور يطيران فى الهواء ، وكأنهما زهرتان توأمتان دب النسيم بينهما ففرقهما ، ولكن لوشك تعاطف والتئام ، وتآلف وانضمام ، فما هى إلا هنيهة حتى تلتفان فتمتزجان ، ثم تتبادلان الأنفاس العبقة الحرار ، وتمزجان مدامع الندى الغزار .

ولما أسفر الصبح التقيا بزاوية فى ألفاف الرياض من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادى من ثغور الأقاح . وما زال ذلك دأبهما وديدنهما يلتقيان بكرة وأصيلا فى سرادق وشاه الورد والياسمين ، مستور عن العيون ، محجوب من الظنون ، فياليت ذلك كان عليهما سرمدا .

يا شقى الله الغضا واهًا على   طيب عيش بالغضا لو كان داما

الحب كالنور يأبى إلا الذيوع ، وكالطيب لا بد له أن يضوع .

ومن ثم بدا لأخوى الفتاة ما كان يغمر العاشقين من لجة ذلك الهوى الزخار ، وكان أخواها موسرين صاحبى ضياع وتجارة وعقار ، فتحادثا فى ذلك الشأن ، فاتفقا على أنه لابد أن يكون لأختهما علاقة غرامية بالفتى « لورنزو » وكان كاتبا عندهما ، وشق عليهما أن يكون خادمهما لأختهما عشيقا ، فعزما على اغتيال الفتى فاستدرجاه إلى أعماق الغابات وهنالك ذبحاه فدفناه .

ثم عادا وأخبرا ايزابلا أن « لورنزو » قد رحل إلى بلد قصى فى مهمة لهماء وأنهما آثراه بهذه الرحلة لفرط ثقتهما به واعتمادهما عليه .

مسكينة إيزابيلا! أرسلى العبرات ما استطعت والزفرات ، والبسى الحداد ، والزمى السهاد،وحالفى الشقاء ،واطرحى الرجاء ، فلن تبصرى لورنزو ما أظلت الأرض السماء .

لبثت إيزابلا الشهور الطوال تكابد من برجاء الوجد والكمد ما تكابد ، وأغفت ذات ليلة فرأت فيما يرى النائم أن « لورنزو » أمامها يبكى وقد شوه القبر جماله ، وأطفأ من وضىء محياه رونقه وصقاله ، وسلب من صوته الرخيم مزهرا وعودا ، وشق فى خده الأسيل لمسارب الدمع أخدودا ، ورنا الخيال إلى إيزابلا بعين إنسانها شرق ، وفى لجة العبرات غرق ، ثم أخذ يسرد عليها حديث مصرعه ، ويحدد لها مكان مثواه ومضجعه ، إلى أن قال : « ثم اعلمى يا حبيبتى أن على قبرى ترف الأزهار والنوار ، ويترنح الدوح والأشجار ، وفوقه حجر من المرمر المسنون، وقد مدت عليه الطبيعة سرادقا من الكرم والزيتون ، فهلمى يا إيزابلا فاسكبى على ثراه دمعة تبرد عظامى،وتروى آوامى ، وتندى على كبدى ، وتضىء ظلمات لحدى .

« ما أنا اليوم سوى خيال يا إيزابلا ، ناء عن الأحياء ، منفرد من الأقرباء والبعداء ، منبوذا على أصراف حاشية الحياة ، أقيم الصلاة الأبدية السرمدية ، على صدى صوت الإنسانية ، ذلك المنحدر إلىّ من متالع سيلها الضجاج ، وعباب بحرها العجاج ، وما ناقوس جنازتى إلا طنين النحل فى لفائف الأشجار ، وهتاف الورق فى الأصائل والأسحار ، وهذه الأصوات الدنيوية لا تزال تزداد وحشة وغرابة فى أذنى ، وتجافيا ونبوا عن روحى وذهنى ، كابتعادك أنت عنى فى عالم الأحياء .

« إنى أعلم ما كان ، وما هو كائن الآن ، ولو أن شبحا فى عالم الأرواح يمكن أن يصيبه الجنون لجننت من مظالم الإنسان ، ومظالم الزمان ، وإنى وإن كنت نسيت طعم الحياة الدنيوية لأشعر الآن بلذة فى قربك ، وأرى صفرة وجهك الحزين تضىء غياهب جفرتى ، وتدفىء أشلاء رمتى ، كأن ملائكة الفردوس تزف إلى عروسا من الحور، وملكا من النور، إن صفرة محياك تنعشنى، وحلاوة جمالك تنبث فى نفسى وتمتزج بأجزاء روحى،حتى لقد أحس دبيب الهوى ومسرى الغرام فى نواحى كيانى . وداعا أيتها الحبيبة ! »

ثم أملس الخيال ، وهبت إيزابلا من منامها مذعورة ، وقالت :

« ويلى ثم ويلى ، ما هكذا ظننت ، ألا إن فى الأمر لجريمة ، لقد سفكت يدا أخوى أزكى دم وأكرمه . أيها الروح الطاهر لقد نبهت غفلتى ، وأضأت دجيتى ، لأزورنك فأقبلن عينيك وأحييك صباح مساء ، ولأجعلن مرآك لناظرى صبوحا وغبوقا »

* * *

ولما مال ميزان النهار خرجت إيزابلا وخادمتها العجوز فى خفية فسارتا حتى بلغتا الغاية وقد سال ذهب الأصيل،فدخلتاها وشرعت إيزابلا تجيل بصرها لتستبين معالم القبر ، كما وصفت لها فى الرؤيا ، ولم تلبث أن اهتدت إليه ، فأقبلت على ثراه تنبش وتحفر ، حتى أزالت سقف الضريح،وإذا فى قرارته جثة هامدة فوقفت مسلوبة الحركة شاخصة البصر ، مطلة على ذلك المشهد المرهوب كأنها ريحانة نبتت على حافة الضريح .

تراها هاجت إذ ذاك وماجت ، وثارت وفارت ، وأرغت وأزبدت ؟ كلا لقد نزلت عليها فى تلك اللحظة سكينة الحزن وصمته .

وهنا اقتطفت إيزابلا من حديقة الموت تلك الزهرة الذابلة - رأس حبيبها ، ولم تجد ذلك الرأس مشوها ولا بشعا ، ولكنه حسنا جميلا فى ظلال الموت كما كان فى أشعة الحياة .

* * *

حملت إيزابلا هامة حبيبها إلى غرفتها ثم أقبلت عليها ، ترجل شعرها الأشعث بمشط من الذهب ، وتبسط ما التوى من أهدابها حول مقرتى عينيها ، وتنضح بشآبيب دمعها الثر تراب القبر اللاصق بها ، وكذلك قضت الساعات العديدة المديدة تمشط وتتنهد ، وتبدأ البكاء وتجدد ، ثم جاءت بمنديل من حرير الصين فرقرقت فيه عبيرا ثم لفت فى طياته الهامة المحبوبة ، وجاءت بآنية من أوانى الزهر مملوءة بطينة حلوة طيبة اريجة فدفنتها فيها وغطتها بتراب شابته بالمسك والعنبر ، وبذرت فوقها بذور ريحان ، ووكلت ريها وسقياها إلى جداول دمعها الفياضة .

عكفت إيزابلا ليل نهار على ريحانتها تسقيها غيث المدامع المدرار على نهل ، تمطرها منه الولى بعد الوسمى ، والعهاد بعد العهاد ، ونسيت فى سبيل ذلك الدنيا وأحوالها ، والحياة وأعمالها - نسيت الأرض والسماء ، والشمس والقمر والنجوم ، والسهل والجبل ، والنهر والغدير ، والشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، فأصبحت لا تدرى متى شرقت الشمس ولا متى غربت ، وهل طلع النجم أم أفل ، وإنما عكفت على ريحانتها الحلوة تمطرها دموعها الغزار ، وتروحها بأنفاسها الحرار ، لا عمل لها سوى ذاك .

وكذلك شبت الريحانة واخضرت ، ونفح طيبها وفاح لها نسيم أذكى وأعتق من نسمات نظائرها فى البساتين والخمائل ، ولا عجب وليس لها من غذاء سوى لوعة القلب الحزين ، وليست مادة حياتها إلا من ذلك الرأس الدفين .

* * *

كذلك برزت من حجابها تلك الذخيرة المدفونة ، والجوهرة المكنونة ، فبدت للعيان خضراء ملتفة فياحة الشذا .

يا طوائف الأحزان وأسراب الهموم والأشجان ! قفى برهة على هذا المشهد الأليم ، فنوحى واندبى ، وصبى الدموع واسكبى ، وأطرقى أسفا ، وذوبى حسرة ولهفا ، ويا نغمات الموسيقى الحزين اسجعى أسى وكمدا ، واصدحى لوعة ووجدا ، ويا صدى عالم الأرواح ثر من مكامنك الخفية فأرسل زفرات العناء ، وأنفاس الصعداء ، ويا ساكنى القبور ! ارفعوا الرءوس وتبسموا استشعارا ، فستنزل بينكم عما قريب إيزابلا ، إنها لتذبل كالزهرة تحت الضريب ، وتذوب كالشمعة فى اللهيب .

* * *

شاهد الأخوان فرط حزنها وطول بكائها ، لا يجف لها جفن ولا ترقأ لها عبرة ، وتعجبا من ذلها وانكسارها ، وكيف قد ظلت تبدد فى عواطف البث والشجن كنوز جمالها ، وتضحى على مذبح الوجد والكمد بنفائس ملاحتها وحسنها .

وأعجب من ذلك انحناؤها على الريحانة ، كاسفة البال ، سيئة الحال ، واخضرار تلك الريحانة ، ورفيفها ونضرتها ، كأنما تمسها عصا ساحر ، أو يتولى نفر من الجن سقياها .

وقال أحدهما لأخيه « إن لهذه الريحانة لشأنا » .

فأخذا يرصدان غفلة عينها عن ريحانتها ، ليقفا على أمرها وقصتها ، وأطالا الرقبة ولكن بلا طائل ، إذ كانت الفتاة أبدا عليها عاكفة ، وأوعية دموعها لا تزال من فوقها واكفة ، فإذا نهضت عنها إلى أهم حاجاتها لم تلبث أن تعود إليها بأسرع من عودة الحمامة إلى وكرها ، ثم تلزمها كما تلزم الدجاجة بيضتها ، وتنبرى عليها بكاء صامتا ، تسرق الدمع فى جيبها وفى فروح شعرها ، ولكنهما استطاعا أخيرا أن يسرقا الريحانة ويفحصاها فى مكان خفى ، وكذلك اطلعا على الدفينة البشعة الشنيعة ، وكان قد عبث بها البلى والفساد وطمس معالمها العفاء والدثور ، ولكنهما تبينا على الرغم من كل ذلك أنها رأس لورنزو .

فلما وقع فى أيديهما أثر جريمتهما سحقاه سحقا ، وذرياه فى الرياح حتى انمحى كل أثر منه من هذه الدنيا .

ولقد غادرا المدينة (فلورنسا) فى أسرع من لمح البصر ، لقد فرا ملوثين بدم الجريمة .

* * *

ظلت الفتاة بعد فقدان ريحانتها حيرى مدلهة ، حسرى مولهة ، تسائل عن الريحانة كل غاد ورائح ، ويا طالما انتحبت عليها برنة وحنين ، وزفرة وأنين ، ويا طالما ساءلت عنها الجوالة والرحالة ، هل سمع بها فى بعض تجواله وتطوافه ، أو بصر بها فى مرتبعه أو مصطافه ، وكم صاحت والعبرات تخنقها :

« والهفا أن لا أزال أفتش عن ريحانتى فلا ألقاها » .

ومرضت الفتاة وضنيت حتى سالت نفسها وفاضت روحها ، فلم يبق فى « فلورنسا » مهجة إلا ذابت شجى ، ولا مقلة إلا أسبلت أسى ، وما زال الناس حتى اليوم يتغنون فى تلك المدينة بلحن يتصل بهذه القصة ، وما هو إلا تلك الكلمة التى كانت ترددها الفتاة إذ تسائل الناس عن ريحانتها ، والتى ذكرناها آنفا وهى :

« والهفا أن لا أزال أفتش عن ريحانتى فلا ألقاها » .

* * *

الفراش العجيب

خرجت وصديقا لى ذات ليلة أتجول في أنحاء باريز فساقنا القـدر إلى بيت من بيوت القمار فدخلناه ، وصعدنا سلمه فأفضى بنـا إلى غرفـة اللعب وكانت تجثم على أرجائها سكتة أرهب من سكتـة الموت ، وكـأن الـلاعبين أشبـاح أو تماثيل ، فكان مشهدا مرهوبا يملأ الصدر وحشة وحزنا ، فلم أجد لى مهربا مما عرانى من الضيق والهم إلا الانضمام إلى اللاعبين فدنوت من المائدة وشرعت ألعب ..

وأقبل على الحظ فربحت وربحت ثم ربحت . أجل ربحت بسرعة أدهشت طائفة اللاعبين فازدحموا من حولى وجعلوا يرمقون مكسبى وأرباحى بأعين منهومة جائعة ـ ثم أخذوا يتهامسون « إن هذا الفتى الإنكليزى سيذهب بمال البنك كله » ..

لقد بهرنى وحير عقلى ما أصبته من ذلك النجاح ، ثم مـا لبث أن أسكرنى فظللت اترنح كمن خالطت هامته المدام وصدمته حميا الكاس .

وجعل اللاعبون ينسحبون على أثر إفلاسهم واحدا بعد واحد ، وبلغ القلـق والاضطراب من النفوس أقصاه ، وكلما تجول الذهب المركوم إلى جانبى سمعت الصرخات واللعنات تنطلق من ألسنة الجماعة بمختلف اللغات (لقد كانوا أخلاطا من كل أمة وملة) ..

وهنا أقبل على زميلى فنصح إلى أن أغادر المكان قانعا بما ربحت ، وألح على بالنصيحة مبدئا ومعيدا لم يـألنى نذيـرا ولا تحذيرا . ولما وجدنى عنه فى صمم تركنى وشأنى ومضى .

وبعد ذهابه بقليل سمعت صوتا أجش ينادينى من خلفى ..

« اسمح لى يا سيدى ـ اسمح لى أن أرد إليك ليرتين قد سقطتا منك . إن حظك لسعيد يا سيدى ، إن حظك مدهش ، هائل ! .. واقسم لك بشرفى العسكرى

ما رأيت قط فى عديد ما شاهدت من المقامرات حظا كهذا ! .

فامض فى سبيلك لا تهب شيئا ولا تبل » ..

فالتفت خلفى فإذا رجل طويل عليه كساء عسكرى قديم وهو يهز رأسه ويبتسم إلى ابتسامة ارتياح وإعجاب ..

ثم قدم إلى تنشيقة فأخذتها شاكرا،وأقسمت أنه لأكرم من مشى على ساق ـ وأنه خير بقايا الجيش الأفخم (جيش نابليون بونابرت) ..

وصاح بى ذلك الجندى العتيق « امض فى شأوك لا تحفل شيئا ولا تبل » ..

ولقد مضيت فى شأوى وتوالت على الانتصارات بسرعة البرق الخاطف،ولم تك إلا هنيهة حتى صاح ..

« أيها السادة إن البنك قد أفلس » ..

ونظرت فإذا جميع ما فى ذلك من الورق والذهب كثيب متراكم تحت يدى ـ وإذا كل رأس مال ذلك البيت على وشك أن ينصب فى جيوبى ! ..

وقال لى الجندى القديم وأنا أغمس يدى فى كثيب الذهب « صر الذهب فى منديلك يا سيدى،فلم يخلق الله حتى الآن جيبا يسع كل هذا . أجل ! أجل ! .. اكتسحها جميعا ! .. هكذا هكذا ! .. اكنسها كلها ذهبا وورقا ، والآن اعقد عليها عقدتين مزدوجتين ولا تخف بعد ذلك شيئا ، ما أسعد حظك ، جس الصرة يا سيدى جسها ، صلبة صلدة صماء كالقنبلة ! .. حبذا ونحن مع الإمبراطور فى موقعة « استرلتز » لو أنهم كانوا يرموننا بقنابل من أمثال هذه الصرة ، والآن يا سيدى لابد أن تشرب معى زجاجة شامبانيا ولنحسون منها قدحا فى نخب آلهة الحظ ! . . »

فصحت قائلا « بكل ارتياح يا سيدى ، لأشربن معك من نبيذ الشامبانيا ، حيا الله الجندى الفرنسى وسقا عهد نابليون وجنوده ولتبق آلهة الحظ ! .. »

فصاح الجندى العتيق قائلا :

« فليحيى الفتى الإنجليزى الماجد الهمام . والباسل المقدام . الذى يتدفق فى عروته الدم الفرنسى المتوقد . أدر الكأس يا غلام ، زجاجة أخرى ونصف أقة

من الحلوى ، فلتحي المدام »

فقلت « كلا أيها الجندى القديم ! .. على حسابك الأولى وعلى الثانية ، فلنشرب في نخب الجيش الفرنسى وفى نخب نابليون الأعظم وفى نخب الحاضرين أجمعين وفى نخب الرجال الأحرار وفى نخب النساء وفى نخب سكان الأرض جميعا ! .. »

ولما فرغت الزجاجة الثانية أحسست كأنما كنت أشرب نارا سائلة وكأن رأسى يلتهب التهابا ..

فصحت قائلا : « أيها الجندى القديم » إنى أحترق احتراقا فكيف حالك أنت ؟ .. لقد أشعلت فى كبدى ضراما ! .. فلنطفئن هذا الضرام بثالثه ! .. »

فصاح الجندى « كلا ، وحسبك ما احتسيت . إنما أنت فى حاجة إلى القهوة ، قدحا من القهوة ، قدحا من القهوة » ثم جرى إلى الغرفة المجاورة .

وكأن لفظة « القهوة » حين خرجت من فم الرجل كان لها تأثير كالسحر فى نفوس الحاضرين طرا ، فما هو إلا فاه بها حتى نهضوا جميعا وتسللوا من المكان واحدا إثر واحد ..

ولما عاد الجندى العتيق وجلس بإزائى لم يكن بالمكان سوانا . وقد خيم السكون على أرجائه .

وقال لى الجندى فى رزانة ووقار « أنصت إلى يا سيدى ، لقد ذهبت إلى ربة البيت فسألتها أن تصنع لنا إبريقا من أجود القهوة وأقواها . واعتقادى أيها السيد أنه لا بد لك أن تشرب منها قدحا قبل ذهابك لتكسر من حدة سكرتك ، وتهضم من سورة حمياها ، فإنه ليس من الحزم أن تخرج سكران ومعك كل هذا الذهب . فقد أخاف أن يكمن لك فى ثنايا الطريق بعض من قد شاهد غنيمتك ممن كانوا ههنا آنفا ، فيقع من الشر ما لاتحمد عقباه . وبعد فإنى أنصح إليك أن ترسل فى استحضار مركبة ، ومتى شعرت بشىء من الإفاقة فاركب وأغلق النوافذ من حولك ، ومر السائق أن يسلك بك الشوارع الآهلة المستنيرة . فاتبع نصيحتى هذه تسلم ويسلم لك ذهبك ، وعند الصباح يحمد القوم السرى » ..

ومع خاتمة هذا الحديث جاءت القهوة ، وقدم إلى صاحبى قدحا وكنت

ظمآن فالتهمته دفعة واحدة ـ وعلى أثر ذلك عرانى دوار شديد وأحسست حميا الراح تزداد فى رأسى سطوة وطغيانا ، وكأن الغرفه تدور بى دورانا ، وكأن الجندى يعلو ويهبط فى عينى أشبه شىء بذراع الوابور ، وأحسست فى أذنى أزيزا أوشك أن يصمنى . وعرانى أشد ما يكون من الارتباك والذهول والحيرة والوهن ، والخور والإعياء والتبلد والبله ، فقمت من مقعدى فى بطء وثقل واتكأت على المائدة بكلتا ذراعى لأحفظ ميزان قامتى ، ثم قلت فى لجلجة « إنى فى غاية الضعف والوهن لا أستطيع حراكا ، ولا أدرى بأية قوة أذهب إلى دارى » ..

فأجابنى الجندى « سيدى العزيز » وكأن صوته كان يعلو أيضا ويهبط « إن من الحماقة أن تحاول الذهاب إلى دارك وأنت على هذه الحال ، ولئن فعلت لتسلبن مالك وروحك . سأبيت هنا الليلة ، وما ضرك لو بت أنت أيضا ، فاتخذ لك مضجعا ههنا وبدد بالنوم العتيق غشاوة هذه السكرة ، وارحل بمالك من ههنا غدا فى رائعة النهار » ..

فلم يسعنى والحالة هذه إلا قبول نصيحة الرجل ، فأمسكت بذراعه وحملت الصرة فى يدى الأخرى ، ثم سرنا فى بضعة مسالك ، وصعدنا سلما أفضى بنا إلى الحجرة التى كانت قد أعدت لراحتى تلك الليلة ، ثم ودعنى الجندى ووعدنى الإفطار معى غدا ثم تركنى ومضى ..

فهرعت إلى إبريق من الماء فشربت منه وأفرغت بقيته على رأسى ووجهى ، ثم جلست على مقعد وحاولت تسكين جأشى ، وما لبثت أن شعرت بتحسين فى حالتى ، وأذهب الله عنى الصداع وأثاب على عقلى وصوابى ، وألقى على كبدى روحا وريحانا أبرد عظامى ، وكان أول ما خطر ببالى ما استهدفت له من الخطر الجسيم بمبيتى فى دار مقامرة . وأخطر من ذلك وأهول هو محاولتى الفرار من تلك الدار فى مثل تلك الساعة ، فلم أجد من حيلة سوى إغلاق الباب وتحصينه بالمائدة والكراسى ، ثم قضاء تلك الليله المشؤومة على تمام الحذر والتحفز لكل طارىء .

وشرعت فى تنفيذ هذه الخطة فأوصدت الباب وحصنته ، وبحثت تحت الفراش وفى الخزانة وسددت النافذة ، ثم نضوت ثيابى واستلقيت على الفراش

وجعلت صرة الذهب تحت الوسادة ..

وهنا ألفيتنى لا أستطيع النوم بل لا أستطيع إطباق أجفانى ، ووجدتني على أقصى نهاية من اليقظة وتنبه الحواس وتوتر الأعصاب ـ وجعلت أتلوى وأتقلب وأقذف بذراعي من فوق اللحاف تارة وأخبئها تحته تارة أخرى ، أتمطى وأتمدد آنا وأتقبض وأتجمع كالقنفذ آخر ، ثم ألجأ إلى القعود بعد كل ذلك .. وهكذا جربت كل رقدة وجلسة بلا أدنى ثمرة ولا جدوى ، فتنهدت من أعماق قلبى إذ تبين لى أنى سأحرم النعاس والراحة طوال هذه الليلة ..

فرفعت نفسى قليلا واتكأت على مرفقى وجعلت أطوف بعينى في أرجاء الغرفة ، وكانت تنيرها أشعة القمر الوضاءة المنبعثة من زجاج النافذة ـ لأنظر هل ثمت من صور أو زخارف أتلهى بها وأتسلى ، وهنا تذكرت الكتاب الممتع تأليف « لى مايستر » المسمى « سياحة حول غرفتي » الذى ضمنه ذلك الكاتب المقتدر أبدع الأفكار والخواطر عما تحويه غرفته من أتفه الأشياء ، فعولت على أن أحتذى مثال ذلك الكاتب المبدع وأنسج على منواله ، فأخذت أعدد ما بالغرفة من الأدوات وأحصيه فحررت بها كشفا فى ذهنى ولكنى لم أزد على ذلك ، وقد أعوزنى ـ وأنا فى تلك الكربة الكاربة والهم الناصب ـ خيال ذلك الكاتب البديع وقريحته الحافلة الفياضة التى استطاعت أن تفجر من أتفه الأشياء كالكرسى والإبريق والشمعة أغزر ينابيع الشعر والحكمة ..

وفيما أنا أتأمل أمتعة المكان وأثاثه أخذت عينى صورة على الحائط وكانت تمثل رجلا على رأسه قلنسوة عالية محلاة القمة بطائفة من الريش ، رجلا أسمر اللون كريه الملامح شثيم المحيا تلوح على وجهه أمارات الفتك والإجرام يظلل عينيه بإحدى يديه ويسمو ببصره صعدا ـ لعله كان ينظر إلى مشنقة قد أعدت لإعدامه ـ وعلى كل حال فقد كانت هيئته تدل على أنه يستحق ذلك ..

فعددت الريش ـ خمس ريشات ـ اثنتين خضراوين وثلاثا بيضاء .

وهنا شت ذهنى وهام فى أودية الذكرى ، إذ أذكرنى ضوء القمر المستفيض فى الغرفة بليلة قمراء قضيتها بإنكلترا عائدا من بعض متنزهاتها فى طريق أنيق تحفه الغياض والرياض ..

وشملة الظلماء مكفورة تحت رداء القمر المذهب

لقد تذكرت تفاصيل تلك السياحة ومفرداتها كافة لم أغادر صغيرة ولا كبيرة مع طول العهد وقلة الاهتمام بها ، وإنها لم تمر بخاطرى منذ أعوام عديدة . وقد أعلم يقينا أني لو كنت تعمدت أن أتذكرها لما ذكرت منها قليلا ولا كثيرا . ألا فرعى الله الذاكرة ، إنها لأوضح دليل على خلود الروح ومصدرها الإلهى ! .. ها أنا ذا فى دار مريبة فى بلدة غريبة وعلى شر حال من القلق والرعب والهول والخطر ، مما هو جدير أن يشل حركة الذاكرة ، وعلى الرغم من كل ذلك ترانى أتذكر - دون إرادتى - حوادث وأحوالا ووقائع ، ومناظر وأشخاصا وأماكن، ومحاورات ومناقشات من كل صنف ولون ، مما كنت أحسبه قد طاح فى مهاوى النسيان آخر الأبد فلا أستطيع إدراكه ، وأنا أهدأ ما أكون بالا وأصفى ذهنا . وما الذى أحدث كل هذا الأثر العظيم وسبب كل هذه النتيجة الهائلة ؟ .. لاشىء سوى شعاع من ضوء القمر انبعث من زجاج النافذة ..

وبينما لا أزال أتذكر تلك السياحة وما أصبنا من ضروب الملذات أثناء العودة إلى منازلنا - وأتذكر آنسه حسناء كانت معنا - مولعة بالشعر ، وقد أبت إلا أن تتمثل أبيات الشاعر « بيرون » الواصفة ضوء القمر من قصيدته الطائرة الصيت « شيلد هارولد » - وذلك لأن الليلة كانت قمراء - بينما أنا مستغرق فى هذه المشاهد والمناظر والملذات والملاهى ، إذ انقطع بغتة سلك هذه الذكريات وتبدد نظامها ، وتوجه التفاتى ثانيا إلى الصورة فألفيتنى أنظر فيها محملقا ، وأرنو إليها محدقا .

ماذا أرى ؟ ..

لقد اختفت قلنسوة الرجل الممثل فى تلك الصورة ! ..فأين ذهبت القلنسوة وما عليها من الريش ؟ .. وما ذلك الشىء الأغبر الذى يحجب جبين الرجل وعينيه ؟ .. ترى سقف السرير يهبط فى حركة بطيئة ؟ .. أبى جنون أم سكر أم خيالات أحلام أم ماذا ؟ .. أم الحقيقة أن سقف الفراش يهبط من فوقى فى بطء وخفية وسكينة . « كالموت مستعجلا يأتى على مهل » حينذاك أحسست كأن الدم قد جمد فى عروقى ، ومشت فى جسدى قرة وقشعريرة ، والتفت

إلى الصورة فأدمنت فيها النظر لأستبين بذلك حال السقف وهل هو ثابت مكانه أم يهبط حقا ..

وسرعان ما تجلت لى الحقيقة ! .. لقد ألفيت رفرف السقف محاذيا لخاصرة الرجل ، وبقيت أنظر فإذا شخص الرجل كله إلى قدميه ثم إطار الصورة ذاته يتوارى من العيان على أشد ما يتصور من المهل والبطء والخفاء .. وذلك على أثر هبوط رفرف السقف . وعند ذلك أصابنى من الروع والفزع ما أصابنى ، ونظرت مرتجف الأوصال مستطار اللب إلى تلك الآلة الجهنمية التى كانت تدنو منى رويدا لتخمد أنفاسى .

نظرت إلى ذلك الموت العاجل فاقد الحركة والنطق والأنفاس ، وكانت الشمعة قد فنيت فخبا ضياؤها ولكن القمر كان يضيىء أنحاء الحجرة ، وجعل سقف الفراش لا يزال يهبط ثم يهبط بلا صوت وبلا توقف ، والرعب لا يزال يقيدنى بالفراش تقييدا ويشدنى إليه شدا - نعم لقد جعل ذلك السقف يهبط ثم يهبط حتى شممت رائحة بطانته التربة .

وفى تلك اللحظة الأخيرة تحركت فى غريزة حب البقاء فأيقظتنى من غمرتى فتحركت ، ثم ألقيت بنفسى من الفراش إلى الأرض وقد مس رفرف السقف كتفى .. !

ثم نهضت إلى ركبتى لأرقب حركة ذلك السقف ، وقد تجمعت حواسى ومشاعرى وروحى فى لحظ عينى وأنا أنظر إلى ذلك المشهد المدهش .

رأيت السقف بأكمله ومن حوله رفرفه يهبط رويدا رويدا ، واشتد دنوه من الفراش حتى لا تكاد تدخل أصبعك بينهما ، ولمست جوانب ذلك السقف فإذا هو ليس - كما كان يخيل إلى من قبل - بذلك الغشاء الرقيق الذى تسقف به الأسرة عادة ، ولكنه مرتبة ضخمة غليظة مكبوسة الحشو ، ثقيلة الوزن كالصخرة الصماء وإنما كان يحجب كل ذلك رفرفه وهدابه . ثم نظرت فرأيت أعمدة السرير الأربعة تسمو صعدا فى فضاء الغرفة عارية فظيعة المنظر ، ورأيت فى وسط السقف لولبا (قلاووظا) ضخما من الخشب وكان ينفذ من الغرفة العليا خلال ثقب فى أرضيتها ، وذلك اللولب أو القلاووظ هو الآلة التى أنزل بها سقف الفراش على

نحو ما تنزل آلة الطباعة العادية على المائدة المعدة للطبع ، وكانت هذه الآلة الجهنمية بلا أدنى صوت ولا حس ، ولم يسمع لها أدنى صرير أثناء هبوطها ولم يك يسمع أدنى حركة فى الغرفة العليا ..

ولم أزل وأنا أنظر إلى تلك الآلة الشيطانية مسلوب القوة لا أستطيع حراكا ولا تنفسا ، ولكنى استعدت قوة التفكير ، فاستكشفت تلك المؤامرة الفظيعة التى قد دبرت لسلبى واغتيالى .

علمت أن قدح القهوة الذى قدم إلى كان مشوبا ببعض المخدرات الشديدة، وإن الذى أنقذنى من الهلاك المحتم هو أنى تعاطيت من المادة المخدرة فوق المقدار المقرر ، وإن نوبة الحمى التى أصابتنى من ذلك المخدر هى التى أنقذتنى بما هيجت من أعصابى وأثارت من دمى ، وشردت من نومى فأبقتنى يقظا منتبها .

ما أشد حماقتى وسفاهة رأيى حيث أسلم قيادى إلى ذلك المجرم الأثيم الذى استلب قوتى وساقنى إلى هذه الحجرة ليقتلنى فى فراشى شر قتلة وأخفاها ثم يأخذ مالى ، وكم من رجل مثلى صنع به كما حاول أن يصنع بى فنام فى هذا الفراش نومة لم يسمع به من بعدها ولم ينظر ! .. هذه الفكرة وحدها خلعت فؤادى وارتعدت فرائصى !

انتبهت من تيار هذه الهواجس على أثر رؤيتى سقف الفراش يتحرك ثانيا ، وذلك أنه بعد بقائه فوق الفراش نحو عشر دقائق أخذ يرتفع ، وكأن المجرمين الذين أنزلوه من الحجرة العليا أيقنوا أن مأموريتهم قد تمت على ما يرام فجعل ذلك السقف يصعد فى سكينة ومهل كما هبط من قبل ، ولما انتهى إلى أطراف الأعمدة الأربعة كان قد انتهى أيضا إلى سقف الغرفة ، وبذلك اختفى الثقب والقلاووظ فلم يك فى مقدور أى امرىء أن يتبين مكانهما ، وبدا الفراش فى ظاهره كأى فراش عادى والسقف كأى سقف عادى .

وحينئذ ألفيتنى لأول مرة أستطيع الحركة فنهضت من ركعتى واقفا وارتديت ثيابى وأخذت أفكر كيف أهرب ، وكنت أعلم أنه إن سمع منى ما يدل على أنى لا أزال حيا فإنى مقتول لا محالة،فطفقت اتسمع موجها نظرى إلى الباب ..

لا حس ولا حركة ، فاطمأن قلبى وعلمت أنه لم يشعر بى أحد ، ثم أخذت

أفكر فى طريقة الفرار فلم أجد مخرجا سوى النافذة فدنوت منها على مشطى قدمى .

وكانت غرفتى فى الدرو الثانى من المنزل تطل على الشارع الخلفى . فرفعت يدى لأفتح النافذة وأنا أعلم أن على هذه الحركة البسيطة تتوقف حياتى ويتعلق خيط أجلى ، وذلك أن دار السفك والاغتيال حرّية أن تذكى فيها الأرصاد والعيون وتشدد الرقابة. لقد علمت أنه إذا بدر من زجاج النافذة أدنى صليل أو من مفاصلها أدنى صرير فإنى هالك لامراء ، وأحسب أن فتحى النافذة لابد أن يكون استغرق منى مالا يقل عن خمس دقائق فى الواقع ، وخمس ساعات فى الوهم .

وقد أفلحت والحمد لله فى فتحها بكل سكينة كما لو كنت لصا ماهرا مدربا . ثم أطللت على الشارع فتبين لى أن الوثوب إلى الأرض مصحوب بالهلاك لا مشاحة . فنظرت إلى جانبى النافذة من الخارج فأبصرت على اليمين أنبوبة للماء ممتدة من أعلى الجدار إلى أسفله فعلمت أن الله قد مد فى أجلى وكتب لى النجاة ، وهنا انطلقت أنفاسى خالصة لأول مرة بعد طول بهر وحبسه ..

وكنت من أحذق الناس بالتسلق والانحدار لفرط مهارتى فى الألعاب الرياضية ، فرأيت الهبوط من تلك النافذة إلى الشارع على أنبوبة المياه من أبسط الأشياء وأسهلها . فصعدت على النافذة وأدليت برجلى منها ، ولكنى تذكرت إذ ذاك منديلى المملوء بالذهب وكان تحت الوسادة فرجعت إلى الفراش فأخذت الصرة وربطتها إلى ظهرى بحمالتى ثم تسلقت النافذة وشددت على أنبوبة المياه بكلتا يدى وركبتى .

وانحدرت إلى الشارع بكل سكون وسهولة ، ثم أسرعت إلى مكتب البوليس وهنالك قابلت المأمور وأخذت أتلو عليه حديثى حتى إذا فرغت منه نهض ذلك الضابط ولبس قلنسوته وأعطانى قلنسوة أخرى (وكنت عارى الرأس) فلبستها وأمر بإعداد فرقة من الجند وسأل أعوانه من مهرة البوليس أن يعدوا من الآلات كل ما يلزم للكسر والحفر والنزع والصدع وما أشبه ذلك .

ثم سرنا جميعا إلى بيت القمار ، وبمجرد وصولنا أقيم الخفراء والحرس حول

المكان من كل جانب ، ودق الباب دقا متواليا وصاح الجند « افتحوا باسم القانون ! .. » فانفتح الباب فى الحال عند سماع ذلك الاسم المهيب ، وولج المأمور باب البيت فصادفه فى المدخل أحد الخدام شاحب الوجه مرتجف الأوصال ، فسأله المأمور قائلا :

« نريد أن نقابل الفتى الإنكليزى الليلة » ..

« لقد ذهب منذ بضع ساعات » ..

« كلا لم يذهب ، إنما ذهب صاحبه وتركه ههنا ، فأرنا مضجعه فى الحال » ..

« أقسم لك يا جناب المأمور أنه ليس هنا ولقد خرج .. » .

« أقسم لك يا جناب الجرسون أنه هنا ، ولقد حاول أن ينام عندكم فألفى الفراش غير صالح فجاءنا يشتكى ذلك ، وها هو ذا بين جنودى وها أنا ذا أريد أن أفتش ذلك الفراش عن برغوث أو اثنين ، يا جاك (مناديا أحد جنوده ومشيرا إلى الجرسون) اقبض على ذلك الرجل وشد كتافه ، والآن أيها الإخوان اصعدوا بنا السلم .. » .

وكذلك قبض على جميع من كان بذلك المكان وفى طليعتهم الجندى القديم ، ثم إنى أطلعت المأمور على الغرفة التى فيها الفراش المعهود ، فصعدنا إلى الغرفة التى فوقها فدخلناها .

وهنا أمر الضابط بحفر أرضيتها فألفينا فراغا مجوفا بين هذه الأرضيـة وبين سقف الغرفة التى تحتها ، ورأينا صندوقا مستطيلا رأسيا من الحديد فى هذه التجويفة ، وفى هذا الصندوق يمتد القلاووظ آنف الذكر رأسيا ، وشاهدنا أيضا لوالب أخرى مزينة وعتلات وسائر الآلات والأدوات المستعملة فى إدارة أمثال ذلك الصنف من المطابع ، وكلها قابلة للتركيب والفك بغاية الإحكام ، وكانت فى تلك الآونة مفكوكة فحاول الضابط تركيبها استعدادا لإدارتها وتشغيلها فأفلح بعد جهد وعناء ، وأمر رجاله أن يستعدوا لإدارتها ثم هبط معى إلى الغرفة التى تحتها المحتوية على الفراش المعهود ، وأصدر أمره إلى رجاله بتشغيل تلك الآلة الفظيعة ، وهنا أبصرنا سقف السرير يهبط كما رأيته يهبط من قبل .

وعلمت بعد ذلك أن الجندى العتيق كان صاحب ذلك البيت الجهنمى،وأن التحقيق آثبت عليه جنايات آخرى من هذا القبيل وانه قد صدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وقد كان هذا آخر عهدى بالقمار وبيوت المقامرة .

الصورة المحجوبة

فى غرفة مشرفة بعليا منزل فى ميدان « ملن » بإحدى مدن اسكوتلنده كانت تجلس المسز « ليونز » - امرأة كهلة أخنى عليها الدهر بعد عيش رغد طالما تقلبت فى ظلاله بين أكناف النعمة وأعطاف الرخاء . وكان يجلس إليها الطبيب « والتر هاتن » فتى فى ريعان الشباب من هواة فن التصوير وكان قد أوفد لمعالجتها من قبل أحد المستوصفات الخيرية .

كان هذا الفتى من أسرة غنية قد أولع بفن التصوير وقد احترف الطب لا عن رغبة فيه ولكن مجاراة لمصطلحات العرف ، وريثما يبلغ فى فن التصوير مكانة تؤهله أن يتخذه صناعة .

لقد آنس هذا الفتى الطبيب من خلال أحاديث تلك المرأة ما دله على أنها لابد أن تكون من الطبقات العالية على الرغم من سوء حالها وضعة مركزها «

وكانت المرأة متكئة على مقعد بجانب الموقد «

قال الطبيب « معذرة سيدتى . لقد أخطأ فيك ظنى . وأحسب أنه قد مر بك زمن أرغد من هذا . وأراك تبذلين نحوى من فرط الحنان والعطف وكثرة العظات والنصائح ما يوهمنى أنه قد كان لك مرة ابن غير صالح » «

هذه الكلمات صدرت عن الشاب عفوا بلا قصد ولكن وقعها على المرأة كان شديدا ، فانتفضت وحدقت فى وجهه طويلا ثم أمسكت أحشاءها بيدها وأرسلت زفرة حارة ووجمت لاتنطق .

وأبصر الشاب أن عينها الدامعة تحولت نحو صورة محجوبة بنسيج من الحرير معلقة فوق الموقد - لها إطار مذهب يناقض رونقه ولألاؤه غثاثة سائر أدوات الغرفة.

ولما كانت هذه الصورة مما شغل بال الفتى طويلا وحير لبه - اعتزم أن ينتهز هذه الفرصة ليستفسر المرأة عن نبأ تلك الصورة فى رفق وتلطف .

ولكنه قبل أن يهيىء من الألفاظ ما يصلح لمفاتحة المرأة فى تلك المسألة بادرته الكلام فقالت :

« لا تذكر هذا الأمر يافتي . حقا لقد كان لى ابن فى مثل طهارة الملائكة وجمالها ، ولكن الأقدار حينما رأت شدة شغفي وتعلقي به انتزعته من يدى »

ثم جعلت المرأة تبكي وتنتحب ـ ويداها تستران أسرة وجهها وغضونه . قال الشاب « أو قد مات ؟ »

فصاحت المرأة « هو فيما يخصنى جدير أن يحسب فى عداد الموتى . إنه فى زمرة الأشقياء يحترف اللصوصية يتعقبه الجواسيس وتطارده الشرطة . لقد كنت أيام نعمتي أسكن بلدة « بيزلى » مرموقة مموقة مغبوطة محسودة لا هم لى سوى تربية ابنى اليتيم . ويزعمون أنه كبر وصار رجلا وأنه يسرق كلما عثر عليه وأنه انضم أخيرا إلى زمرة الأشقياء حثالة المجتمع ونفايته المطاردين المطرودين من حظيرة الإنسانية .

لقد انقضى عصر النعيم فلم يبق إلا ذكره المتنسم أو عهده المتوهم . ولقد يسرنى إذا خطرت على قلبى ذكريات غلامى أن أتخيله قد مات وقبر . وإن يد الحمام قد اختلسته من يدى طاهرا مطهرا بريئا من المذمات منزها عن المآثم حسبما هو ممثل فى هذه الصورة » وأومأت إلى الصورة المحجوبة .

قال الفتى الطبيب « إن حديثك ليحرك من نفسى ساكنا . أتأذنين لى أن ألقى نظرة على هذه الصورة ؟ وقد تعلمين أنى أتعاطى فن التصوير وأنى من أشد طلابه غيرة وإخلاصا . ولعلى جاعله يوما ما صناعتى وحرفتى » .

قالت المرأة « إنه لما لك عندى من الحرمة والكرامة ـ ولكى ترى كيف ينقلب البر فجورا والصلاح طلاحا ، وكيف تستحيل البراءة إجراما والفضيلة رذيلة ؛ لن أرفض طلبك » .

فتقدم « والترهاتن » إلى الصورة وأماط حجابها . وما يبصرها حتى ارتد حائرا دهشا وأرسل من شدة سروره وعجبه صيحة أعقبتها فترة سكوت مفعمة بمزيد الابتهاج والطرب .

لقد كانت صورة صبى صغير مورد الوجنتين قد اكتسى محياه نقابا مشرقا

من غضارة النعيم والعافية ، وتسترسل على كتفيه وأعطافه غدائره الذهبية ، وهو يطل من خلال كرمة فى بستان تعبث يمناه بعنقود من أعنابها ، وبأسفل الإطار مكتوب (عنقود ناضج . جيمس ليونز ، سنه ٧ سنين) .

أعقب ذلك سكون عميق كان الفتى أثناءه فى نشوة من الطرب والإعجاب بجمال الصورة - والأم فى سكرة من ذكريات الماضى . وبعد طول تدبر وتأمل فى محاسن الصورة قال الفتى « تالله ما رأيت قط فى عالم التصوير شيئا يدانى هذه الملحة البديعة روعة وجلالا . أتعرفين قيمة هذه الصورة ؟ أتدرين أنها تقوم بمال كثير - خمسمائة ليرة بل أكثر . » .

قالت الأم (طالما نبئت ذلك من كثيرين فى الزمن الغابر ، أيام نجلى جيمس يرتع بين يدى فى أفياء النعيم تقيا بريئا لم تشبه شائبة . وكم أصابتنى المحن من بعد ذلك وألمت بى الملمات ، ولكنى لم أفكر قط لدى أشد نكباتى فى بيع هذه الصورة - وذلك من أجل غلامى ومن أجل اليد التى أبدعت الصورة - فاعلم يا سيدى أنها آخر ملحة دبجتها ريشة زوجى وذلك قبيل وفاته . فهى ثمرة من ثمار الحنان والحب الأبوى . ولن تقوم بالمال مهما كثر . وتالله ما كنت لأهبها ولو أعطيت فيها منجما من الماس » .

فانهدمت آمال المصور الصغير عند سماع هذا القول الصريح . ولكنه ولى وجهه شطر الصورة ولبث يرنو إليها بعين تشف عما كان يخامر وجدانه من عوامل الحسد والطمع .

ثم قال للمرأة « ليس فى نيتى اشتراؤها . على أنك لو أردت بيعها لدفعت بها ما تطلبين - ولكن ألا تسمحين لى أن أنقل صورة منها - لأدمجها فى صورة أعانى الآن رسمها ؟ »

قالت المرأة « ومعنى ذلك أن صورة ابنى ستعرض فى تضاعيف رسمك على أنظار الناس وتتخطفها ألحاظهم ؟ »

قال المصنور الصغير « أجل ستعرض على الأبصار ولكن فى شكل آخر - وعلى فرض أن بعض من كان يعرفك فى غابر الأيام اطلع عليها فعرفها فلن يقول فيها إلا خيرا . وبعد فإنى واهبك ما تشائين وواعدك أن أبذل فى صيانتها من

العناية والاهتمام فوق ما تستطيعين » .

لقد قرأ الفتى آية الرفض والإباء مسطورة على صحيفة وجهها .

ثم أكدتها بقولها « ليس فى طاقتى أن أقضى حاجتك ـ إذا لا أستطيع أن أتخلى عن الصورة طرفة عين » .

فألح الفتى قائلا « ولكن اذكرى ما سوف تنالينه من المال الجسيم » .

« لا حاجة بى إلى المال ـ لقد كان فى حوزتى مرة ـ وما لبث أن مضى وأخذ معه غلامى الأوحد وأمه . وقد لقيت من جرائه الضر والبلاء فيما مضى فلست على ذهابه باكية ولا لوشك إيابه راجية » .

بماذا يرد الفتى على مثل هذا القول الحاسم ؟ هذا الفتى الذى نشأ فى النعمة واعتاد أن تبذل له الطاعة العمياء من خدمه وأتباعه ـ كيف يتلقى هذه الصدمات المتوالية من مثل تلك المرأة ؟ ـ لقد احتدم غيظا واستطار شواظ الغضب فى صدره حتى سطع على وجنتيه جمرا مؤججا ، فتنفس الصعداء وعض على يديه ندما . ولكن إباء المرأة لم يزده إلا لجاجا وطمعا فأعاد الكرة .

« اسمحى لى أذن يامسز ليونز أن أنقل منها صورة موجزة ههنا وبمرأى منك » .

قالت المرأة « كلا ! لقد أخطأت يافتى إذ سمحت لك أن تبصر الصورة » ثم نهضت فى صعوبة وسعت إلى الصورة فأسدلت عليها حجابها وأستأنفت الكلام ، قالت (اجعل هذه الصورة فى حكم مالم تقع عليه عينك . وقدر أنك لا تعرف ما وراء ذلك النسيج الحريرى . إن أمامك دروسا كثيرة تتلقاها قبل أن تبلغ مراتب أولى النبل والمروءة) .

فقال الفتى « أما لو علمت أن كل آمالى معلقة على نجاحى فى صناعة التصوير، وإن هذا النجاح معلق الآن على هذه الصورة ـ وإن حرمانى من اندماجها فى الصورة التى أزاول اليوم صنعها هو حرمانى من أقدس آمالى فى الحياة ومن كل لذة ومتاع وتسجيل الشقاء علىّ أبد الآبدين ـ لما أصررت على إبائك ولما تماديت فى رفضك ولأخذتك الشفقة علىّ فسمحت لى بما فيه جل سعادتى وليس عليك فيه أدنى أذى ـ وبعد فهأنذا سيدتى ماثل بين يديك أترقب منك

كلمة واحدة يتوقف عليها حظى : فإما إلى أوج الرفعة والمجد ، وإما إلى الهاوية ! »

وعلى الرغم مما حركته هذه التضرعات من عواطف المرأة أصرت على رفضها ولقد تبددت سيول فصاحته الدافقة على صخرة إبائها الصماء !

وعلى هذه الحال انصرف الفتى « والتر هاتن » وهو يقول « لابد من الحصول عليها لو ألجئت إلى استخدام من يسرقها »

وفى اليوم التالى عاد إلى مفاوضة المسز ليونز فى أمر الصورة فكان جوابها الصمت والإعراض . وبعد يومين ـ وكان لا يزال متماديا فى إلحاحه ـ طلبت إليه المسز ليونز فى أدب وتلطف أن يقطع عنها زيارته بحجة أنها قد شفيت من علتها شفاء تاما فأصبحت ولا حاجة بها إلى معونته . فأجابها الشاب إلى طلبها مع إدراكه أنها لم تكن سوى حجة باطلة لفقت للتخلص من إلحاحه . واتفق بعد ذلك بأيام أنه كان ذات ليلة فى ملهى يلاعب صديقا له لعبة البليارد » فقال له ذلك الصديق عرضا : « أتعرف ذلك الجالس هنالك ؟ » مشيرا إلى رجل على كثب منهما : « هذا من أمهر لاعبى البليارد وهو يتخذ ذلك حرفة ومرتزقا . ولكن ميزته الكبرى أنه من أمهر اللصوص ، على أنه قد ترك حرفة اللصوصية وأصبح اليوم كأشرف إنسان) .

لقد رسخت هذه الكلمات فى فؤاد الفتى فأنبتت به فكرة غريبة ، فعمد بعد برهة إلى ذلك اللص التائب وانتحى به جانبا من المكان وأخذ يسبر غوره فيما يتعلق بمسألة الصورة ... تلك المسألة التى كانت أشغل الأشياء لجنانه وأمسها لوجدانه .

قال « أتعرف من بين أفراد طائفتكم من يقوم لى بهذه المهمة مقابل مبلغ يسره ؟ »

فأجاب الرجل « أعرف كثيرين ، ولكن أحذقهم هو المدعو (كورين جيم) فإذا شئت استخدامه في مهمتك فأوصه أن لا يستعمل العنف فإن له يدا سريعة إلى البطش وهذا كل ما يؤخذ عليه . أما فيما عدا ذلك فليس فى الطائفة من يدانيه خفة ومهارة . فإن شئت فهلم بنا إلى مقر ذلك الهمام (كروين جيم) .

جرى هذا الحديث همسا فى غرفة الشراب ولم يكن بها إذ ذاك إلا رجل

واحد كان حسب الظاهر مستغرقا فى النوم على مقعد قرب الموقد .

فلما غادر المكان (والتر هاتن) ورفيقه تحرك الرجل المتناوم فى مقعده وفتح عينيه ونصب أذنيه . فمن ترى يكون ذلك الرجل . هذا هو المستر « سيمون » المخبر .

قال هذا الرجل لنفسه وقهقه طربا (شغلة جديدة لى ولرئيسى المستر « مندو » إن السيد الهمام (كورين جيم » لأمهر من تسلق جدارا . واستلب أسوارا . واختلس دينارا . ولكنه قد قارب مداه ، وأشرف على منتهاه ، هكذا الدنيا وهكذا الحياة !) .

وبعد هذه المناجاة الفلسفية غادر المكان وسار يؤم منزل رئيس البوليس السرى المستر (مندو) .

فى هذه الأثناء كان الطبيب المصور (والتر هاتن) ولاعب البليارد يتخللان كهوف اللصوص وغيرانهم بحيهم المملوء بالنكرات والخبائث ، حتى انتهيا إلى مركز الرياسة أو المعسكر العام فى (وادى النعيم) (كذلك كان يسميه اللصوص) . وهنالك ألفيا ضالتهما المنشودة (كورين جيم) .

لقد دهش المستر أرثر هاتن وأخذ منه العجب كل ما أخذ حينما أبصر فى شخص ذلك اللص (كورين جيم) شابا مؤدبا جم الحياء ، رقيق الحاشية مهذب اللفظ ، رخيم المنطق لا يشوب جوهر كلامه خبث الألفاظ السوقية وخشونة لهجة الرعاع والسفلة ، ولولا ما انطبع على صفحة وجهه الشاحب من عنوان الجريمة الناصع لما شك (والتر هاتن) فى أنه إنما يخاطب ندا له ونظيرا ينزل المجتمع فى مثل درجته ونصابه ، وكانت حركات من الفتى (كورين جيم) وإشاراته تدل على أنه قد كان حينا ما أسمى مكانة وأطيب عيشا . ولكن الذى زاد (والتر هاتن) دهشة وحيرة وجه الفتى « كورين جيم » إذ تبين أن هذا الوجه ليس جديدا ولا غريبا فى عينه وأنه قد شاهد شيئا يماثله ولكنه لم يستطع أن يتذكر متى ولا أين .

وقص (والتر هاتن) على ذلك اللص نبأه وحاجته قائلا :

« سأريك السلم بنفسى ، ومتى بلغت أعلاه وجدت غرفة المرأة ، وما أحسب أنك ستجد كبير شقة ، فباب الغرفة رقيق واه يستطيع أى غلام أن يحطمه بصدمة

واحدة » .

قال اللص « عليّ تنفيذ مشيئتك فلا تضق بذلك الأمر ذرعا ، واحسبه أنه قد تم على أحسن ما تروم . كم تدفع فى ذلك ؟) .

« خمسة جنيهات ، أيرضيك ذلك ؟ » .

(حسبى به فإن فيه الكفاية . اعطنى عنوان دارك وسآتيك بالصورة فى ظرف ثلاث ساعات).

فسلمه الطبيب المصور رقعة بعنوانه وبذلك تمت المفاوضة ، وانفض الجماعة كل فى طريقه .

وشرع (كورين جيم) فى إعداد عدته ، فتناول بضع آلات حداد ومصباحا خفيا وتنكر فى زى التلصص ، وخرج يتسلل فى ظلام الدور والمساكن حتى وصل إلى السلم المعهود ، ووافق وصوله ثمت وصول المخبر « سيمون » ورئيسه (مندو) .

خلع اللص (كورين جيم » نعليه وتسلق السلم فى مثل خفة الأعصم وسرعة الظليم . ولما بلغ باب الغرفة أخذ يجس مصراعيه وأغلاقه فى رفق ولطف ليهتدى إلى أسرع وسائل الولوج وأخفتها . وبينما هو فى ذلك ، إذ وجد لحسن حظه أن الباب غير مقفل فما كاد أن يحركه حتى انفتح ، فتمهل ريثما يستطلع حالة المرأة أفى يقظة أم هجوع . فسمع من غطيطها ما جدد أمله . ثم أجال عينه فى جدران الغرفة فاستطاع بضوء الموقد المتضائل أن يبصر الصورة المنشودة .

فقال فى نفسه « لقد سنحت الفرصة ! وما هى إلا طرفة عين حتى أنطلق بالصورة وما شعر بى أحد » .

ثم انساب فى الغرفة انسياب الأرقم ، وانقض كالأجدل على الصورة فأنشب فيها براثنه .

وحين هم بالخروج أبصر المرأة تحدق إليه بعينين مذعورتين ، فجمد مكانه كأنه تمثال من الصخر . وفى تلك اللحظة صاحت المرأة صيحة دوى صداها فى أنحاء الحجرة ووثبت من مرقدها فألقت بنفسها على اللص .

فدمدم اللص « أخمد الله أنفاسك ! فضى يديك عن الصورة » وكانت قد أمسكتها بمثل قبضة الغريق ، وحاول عبثا أن يخلص الصورة من يديها .

أطلقيها وإلا أطلقت روحك من بين أضلاعك » .

فصاحت المرأة التعسة وهى تتشبث بأعز ما بقى لها فى هذه الحياة الفانية ـ بذخرها الوحيد ، بمناط أملها وقرة عينها .

« الغياث والمدد ! اللصوص سفاك الدماء . لن أدعها ولو تزهق روحى !)

وهنا خرت المرأة صريعا بصدمة شديدة من يد اللص وسقطت الصورة إلى الأرض وغطاؤها الحريرى ممزق فى يد المرأة الصريع ، وإطارها البديع ملطخ بدمائها

وقال اللص فى نفسه (لقد أبت إلا أن تنال منى هذه الضربة . لقد طالما جادت يدى بالمئات من أمثالها فلم آسف ولم أندم . ولكن أرانى الساعة على ما بدر منى جد نادم . وتالله لا أعرف لذلك من علة ، ولكن أين الصورة ؟ » ثم انحنى ليبحث عنها وفيما هو كذلك انحدر غطاء المصباح قليلا فانبعث منه شعاع أضاء الصورة .

ماذا أصاب اللص الخبيث (كورين جيم) ؟ وماذا دهاه ؟ وما باله قد انتفض وأرعد وجعل يرنو إلى الصورة الحسناء بمقلتين جاحظتين تكادان تطفران من حجاجيهما ، وقد جمدت أوصاله وتحجرت عضلاته وأعصابه ووقفت دقات قلبه ؟ وما له صاح صيحة منكرة كأن فؤاده قد انتزع من صدره وخر إلى ركبتيه يحاول احتمال المرأة بين ذراعيه غير مكترث لنذير وقع أقدام خارج الغرفة ؟

ثم صاح قائلا « أماه ؟ وابلوتاه ! لقد قتلت أمى ! » وأهوى إلى المرأة فجعل يقبل الدم المنجس من جبينها الشاحب ، ويدلك يديها ويحاول بكل وسيلة أن يرد عليها حواسها .

وبعد مشقة فتحت المسز ليونز عينيها وتنفست الصعداء ونظرت فى وجهه ولكنها لم تعرفه .

فصاح « أمى : أمى : أنا جيمس ، ابنك جيمس ! » .

فقالت بصوت خافت وكأنها فى حلم « كلا ، كلا ! لست به ، لقد مات وقبر ! » ثم ارتدت إلى غيبوبتها . وفى الوقت ذاته دفع الباب ودخل رئيس البوليس المستر (مندو) والمخبر (سيمون » فانقضا على (كورين جيم) وحاولا اجتذابه عن المرأة الجريح . ولكن اللص الشديد البطش بدلا من هجومه عليهما هجمة الليث ومصارعتهما صراع النمر ـ كما كان ينتظر ـ استمر منحنيا فوق المرأة

الفاقدة شعورها يصك يدا بيد ويصيح :

« لقد قتلتها : لقد قتلتها : خذونى : خذونى ثم اشنقونى أمام الملأ أجمع . أماه .. أماه .. أوهكذا انتهت مأساة حياتك ؟ » .

وهنا تقدم المخبر (سيمون) فوضع الأغلال فى يدى كورين جيم وساقه إلى مكتب البوليس ، ومن ثم أرسل جراحا لعلاج المرأة .

وفى صباح اليوم التالى طلعت المسز ليونز على موظفى مكتب البوليس معصوبة الرأس تكتنفها امرأتان تساندانها ، والتمست إلى موظفى المكتب بصوت شجى يستذيب الصخرة الصماء أن يؤدوها إلى حجرة السجين . فأجابوا دعاءها ، على أنه لم يدر أحد مادار بينها وبين ابنها جيم أو جيمس فى تلك الخلوة . على أية حال فلقد هدأت تلك المقابلة من روعها وسكنت من جأشها رغما مما كان يبدو على وجهها من أثر البكاء أثناء تلك الخطوة . ثم إنهم أجلسوها على مقعد محفوف بالمساند إلى جانب الموقد حيث لبثت لحين ابتداء التحقيق . وفى الساعة العاشرة قدم المكتب رئيس البوليس المستر « مندو » ، فأعلم بقدوم المرأة ، فدخل عليها ولما عرفت من هو ، أسرت إليه بمقالة طويلة كلها رجاء وابتهال واستعطاف واسترحام ، وقد أمسكت بإحدى يديه وبللتها بدمعها الغزير . ولما أخذ شؤبوب توسلاتها الحار يسح ويهضب على أذنى ذلك الرجل الصارم الغليظ الكبد ، أقبل عليها وجعل يسألها ، ثم أنصت إلى حديثها مقطوع الأنفاس . ولما قالت له أخيرا « تذكر أنى أمه وأنه ابنى الأوحد فارحمه كما تود أن تبوء برحمة من الله ـ انطلق وجهه العبوس وانبسطت أسرته الجعدة ، ثم انحنى على يد المرأة فقبلها . .

بدأ التحقيق . وكان من سئل المسز ليونز .

قال قاضى الجلسة « أتعرفين هذا الرجل ؟ .. » .

« نعم . هو ابنى » ..

« أتتهمينه بالهجوم على دارك واعتدائه هذا الاعتداء القظيع على شخصك ؟ .. »

« كلا ! .. إن ابنى جميس هذا ما كان لينالنى قط بالأذى » ..

« أتعنين حقا أنه لم يرتكب هذه الجناية ؟ .. إذن فمن الذى أصابك بهذا ؟ .. »

« لا أدرى . كل ما فى الأمر هو أنه جاءنى بعد غيبة أعوام عديدة فأغمى

على بين ذراعيه من فرط تأثرى . ولما انتبهت ألفيت جرحا داميا فى جبهتى وجراحا يضمده » ..

وهنا أرسل المتهم أنة عالية شديدة وغطى وجهه بيديه .

« أو لم تكونى سالفا فى رخاء ورغد فأباد هذا الجانى نعمتك ، وبدد ثروتك ؟ .. »

« لم تكن ثروتى بل ثروته . ولم يبددها من تلقاء نفسه ، ولكن بإغراء جماعة من الغواة الأشرار . ولو علمت حقيقة الأمر يا سيدى لما أردتنى على الشهادة ضده » . ثم إن المرأة التعسة سترت وجهها بيديها وأخذت تبكى وتنتحب .

قال القاضى : « لا فائدة فى سؤال هذه الشاهدة ، أحضروا رئيس المخبرين المستر « مندو » ..

فتقدم المستر « مندو » وأرهفت المسز ليونز أذنيها لتنصت إلى شهادته ..

« أتعرف هذا الرجل ؟ .. »

« أعرفه ، وهو معروف باسم كورين جيم »

« أهناك ما يحملك على الجزم بأنه قد حاول أمس ارتكاب جريمة السطو على دار المسز ليونز ؟ .. »

« كنت ظننت ذلك بالأمس ، ولكن تبين لى بعد أنى مخطىء ، وأن حلوله أمس دار أمه لم يكن إلا على قصد زيارتها » ..

فواصل القاضى مجهوداته فى التحقيق مع المستر مندو ليستخرج منه خلاف ما قاله فلم يفلح . وأبى رئيس المخبرين أن يزيد على ما أدلى به حرفا واحدا ..

فأمر القاضى بحفظ القضية لعدم توافر الأدلة الكافية ، وأطلق سراح المتهمين .

ويسرنى أن أقول إن « كورين جيم » ، اللص الفاجر ، قد انمحى أثره من الوجود بعد هذا الحادث ، ولكن جيمس ليونز البار الصالح كان يرى من ثم فصاعدا بأحد البلاد المجاورة عاملا أمينا فى أحد المتاجر ، عضدا متينا لوطنه ، وقرة عين أمه ، وعماد هرمها .

الحظوظ الثلاثة

في شفق يوم صائف على الطريق المؤدية إلى قرية بضواحي « شيكاغو » كان يرى رجل طويل القامة أسمر اللون تدلك هيئته على أنه ما برح نضو أسفار، وحسير رحلات ذات أخطار ، وكانت عصاه التي يتوكأ عليها مما اقتطعه بيده من خيزران أحراش الهند ، والقلنسوة التي تظلل جبينه المكفهر وهو يلج باب قريته ومسقط رأسه هي التي وقته وهج الحرور ، في هضاب الأندلس ووقدة الهجير في تنائف فارس ، وكان الذي سفع وجنتيه ، ولوح ديباجتيه هو لظى السمائم بفيافي اليمامة وفلوات حضرموت ، وكم قاسى وخزات القر ، ولدعات الشمال الصرصر ، على مثالج القطب ، وكان لا يزال يحمل تحت نطاقه الخنجر الذي ذبح به في القوقاز لصا من قطاع الطريق ، وما من أرض حلها إلا فقد بها خصلة من خصال أهل جلدته ، واستفاد - من حيث لم يشعر - خلة جديدة من خلال أهلها ، فلا غرابة أنه حينما عاد إلى قريته يجوس خلالها ، أنكره سكانها فلم يعرفه من بينهم أحد ، غير أنه حينما صادف في طريقه امرأة صغيرة انتفضت دهشة وصاحت :

« رالف كرانفيلد ! »

وقال هو في نفسه ومضى في سبيله ، لم يقف ولم يلتفت :

« أيحتمل أن تكون هذه رفيقة حداثتي وخليلة طفولتي « فيث ايجرتون ؟ » »

لقد شب « رالف كرانفيلد » على عقيدة أنه قد كتب له في هذه الدنيا السعادة القصوى ، ولا ندري أجاءته هذه العقيدة عن طريق السحر أم العرافة ، أم الكهانة أم العيافة ، أم الوحي والإلهام ، أم الرؤى والأحلام ، ولكنه كان يعتقد اعتقادا جازما أنه سينال من الدهر ثلاثة حظوظ عظمى تبشر بحصولها ثلاث آيات بينات .

فأول هذه الحظوظ هو أنه سيصادف يوما ما في بعض جولاته الفتاة التي وحدها ، من بين جميع من على ظهر الأرض من الفتيات ، تستطيع بحبها أن

تسعده ، فكان عليه أن لا يزال يطوف فى آفاق العالم حتى يصادف هذه الآنسة وعلامتها أنها تحمل على صدرها تمثال قلب مصوغ من جوهر ، لا يدرى من زبرجد أو ياقوت أو مرجان أو فيروزج أو لؤلؤ أو ماس ، وإنما المهم أن يكون على شكل قلب ، ومتى لاقى تلك الآنسة عليه أن يخاطبها قائلا « سيدتى » لقد جئت أحمل إليك قلبا متعبا منهوكا ، فهل لى أن ألقى عليك أثقاله وأعباءه ؟ » فإذا كانت هى الغادة المعهودة الموعودة وحظه من الحياة ونصيبه ، أجابته ولمست حلية صدرها قائلة « هذه الآية التى مازلت أحملها منذ عهد بعيد هى آية القبول والرضى » .

وثانى حظوظه هو أن هنالك فى بعض بقاع الأرض كنزا مدفونا لن ينكشف إلا له ، وآية ظهوره أنه متى وضع قدمه فوقه بدت له يد تشير إلى أسفل ، — لايدرى : يد من عاج أم مرمر أم يد من لهب فى الفضاء أم يد من جلمد هائلة الجرم منصوبة على هاوية سحيقة قاتمة الأعماق ولكنها يد تشير سبابتها إلى أسفل تلوح من تحتها لفظة « احفر ! » حتى إذا حفر انكشفت له كنوز الذهب النضار ، دنانير مضروبة أوسبائك والأحجار الكريمة أو غير ذلك من الذخائر والنفائس .

وثالث المعجزات الرقى إلى رتبة الزعامة والقيادة ، والسيطرة على أبناء جنسه ، لا يدرى أيكون ملكا مطاعا ، صاحب عرش ومؤسس دولة أم قائدا منصورا يذود عن حريم أوطانه ويحمى ذمارها ويحوط حريتها واستقلالها ، أم نبيا مرسلا بدين جديد ورسالة ، يبشر بوشك النجاة من خبائث العمران وحبائل الشيطان ، وآية ذلك الفتح المبين أن يفد عليه ثلاثة من جلة الشيوخ الجحاجحة يهزون اللحاء الشيب يحمل إليه أكبرهم صولجان الملك أو عصا الزعامة أو النبوة أو لواء القيادة ، ثم يتلو عليه الرسالة .

وبهذه الفكرة الوقادة وهذا الخيال الملتهب ، وشبح المستقبل الباهر يتلألأ أمامه ويتألق ، انطلق « رالف كرانفيلد » من قريته يضرب فى شعاب الأرض ويجوب الآفاق يلتمس الآنسة والكنز وبشير الدولة الفيحاء والإمارة ؟ ، فهل أصاب ذلك ؟ كلا ! لقد عاد بعد عشر سنين من الكد والإعياء بالفشل والخيبة

وقد طوفت فى الأفاق حتى   قنعت من الغنيمة بالإيــاب

لقد عاد إلى قريته ولكن بنية استئناف الرحيل بعد فترة من الإستراحة .

بلغ الرجل دار أمه فعرج ثمت على معاهد صباه وملاعب طفولته وعرج على الشجرة المورقة التى كان لا يبرح يلهو بأفنانها المهدلة أيام حداثته ثم أجال بين قضبانها وخيطانها فلمح بساقها كلمة كان نقشها عليها بمبراته أيام هبط عليه ذلك الوحى العظيم بنبأ الحظوظ الثلاثة ، وتلك الكلمة المنقوشة هى « احفر » (إشارة إلى الكنز الموعود والعلامة الدالة عليه) ومن عجيب الاتفاق أن الشجرة كانت قد أفرزت من صمغها ما تلبد فوق تلك الكلمة المنقوشة وتكاثف ثم بدا على هيئة يد تشير سبابتها سفلا إلى الكلمة المذكورة « احفر » كما ورد فى نص البشارة ، فلما شاهد الرجل ذلك ابتسم ابتسامة أليمة مضاضة من سخرية الحظ وتهكم الأقدار ، وقال فى نفسه « عجبا ! أفبعد هذا الجهد والجهيد وتلك المشاق والمصاعب ، يهزأ منى القدر ويوهمنى كذبا وإضلالا أن الكنز يكمن هنا أمام دار والدتى فى ذلك التراب المقفر العقيم ! ويحى من سخرية هذا الحظ الهازل ! »

وفى هذه اللحظة خرجت عليه أمه ، ودعنا مما كان بينهما من فرحة اللقاء وكلمات التهانى ، ولنترك الأم إلى سرورها وجذلها ، والابن إلى استمتاعه بعد النصب بالراحة - إن وجدت الراحة إلى قلبه سبيلا .

ولما أسفر الصباح نهض « رالف كرانفيلد » من فراشه قلقا مضطربا إذ كانت رقدته ويقظته مملوءتين بالأحلام ، وتأرجحت فى صدره جذوة التشوف إلى استكشاف السر العظيم . لقد وجد طوائف خيالاته وأوهامه وأسراب أمانيه وأحلامه تنتظره تحت سقف داره فأحدقت به وازدحمت حوله ، ولقد قضى على فراش طفولته ليلة أروع وأهول ، وأشد أرقا واضطرابا وقلقا ، من كل ما قضاه فى خيام الأعراب بالصحراء ، أو تحت ظلال الأجمة اللفاء ، فى ملاحف الظلماء ، وتراءت له غادة رود كعاب تدنو من فراشه وتلمس حلية صدرها المصوغة على هيئة الفؤاد ، وتراءت له يد من لهب تتوهج فى الظلام ، وتومىء سفلا إلى سر غامض فى أحشاء التراب ، وتراءى له شبح شيخ وقور يليح له بصولجان الإمارة ، يدعوه إلى المضى قدما لارتقاء أريكة الملك ، ولما بدا حاجب الشمس ، ولمع بريقها فى أجنحة الطير ما برحت تتراءى له هذه الصور والأشباح ، فلما استوى

شباب النهار وعلا رونق الضحى استمرت تلوح له وتتوارد ، وإن غض من بريقها ونقص من بهائها الضياء .

ولما بلغت الشمس كبد السماء ، وانتعل كل شيء ظله ، بصرت الأم من النافذة بثلاثة رجال قادمين خلال وهج الظهيرة وظلال الأشجار .

ولما ولجوا باب الدار ، صاحت الأم محبورة تنادى ابنها :

ـ هلم يا رالف ، هاك السيد « هوكوود » وآخرين من وجوه القرية قد سعوا بالزيارة إليك لما علموا بقدومك ! »

وكان أولئك الثلاثة من أعيان القرية وسراتها ذوى مزارع وحقول ، ولما كانوا يتقدمون فى بهو الدار ، جعل « رالف كرانفيلد » يصوب إليهم نظرة غارق فى غمار أحلامه ويكسو أشخاصهم الوضيعة رونق عظمة كذابة وجلالة باطلة من أشعة وهمه المضلل ، ويحوك عليهم من نسج خرافاته حللا براقة ، ويحفهم بجو خيالى وعالم مسحور .

وقال « رالف » فى نفسه وابتسم لما جال بخاطره .

ـ ماذا على إن قلت لعل هؤلاء الشيوخ الثلاثة ، الحامل أحدهم عصا ضخمة طويلة ، إنما جاءوا يحملون إلى البشارة ! »

ولما دخل الثلاثة عليه نهض من مجلسه وتقدم نحوهم خطوات ، وبعد تبادل التحية شرع أكبر الثلاثة فى إبلاغ رسالته قال :

ـ لقد نيطت بنا نحن الثلاثة مهمة انتخاب رجل كفء ليشغل منصبا من أخطر المناصب ، ويتقلد زمام حكومة لا تقل أهمية وخطورة عن حكومة الملوك والسلاطين ! ولما كنا نعهد فيك العقل والنهى ، والحكمة والحجى ، وكنت قد استفدت بفضل رحلاتك العديدة ، وأسفارك البعيدة ، من التجارب ما أخلاك من نزق الشباب ، وأورثك حنكة أولى الألباب ، فلا ريب عندنا أن الله عز وجل لم يرسلك إلينا فى هذا الظرف الحرج العصيب إلا لتطرح عن كواهلنا هذا العبء الثقيل ، بولايتك ذاك المنصب الجليل .

وفى أثناء هذه الخطبة كان « كرانفيلد » يدمن النظر إلى المتكلم كأنما يستشف من وراء شخصه الريفى الحقير ، معنى خفيا من معانى العظمة والجلال ، وسرا

من غامض الأسرار ، ويخيل إليه أنه يواجه حكيما من فلاسفة الهند واليونان ، أو كاهنا من كهنة فجر الزمان ، ولا غرو فإن ذلك الفلاح حينما دنا من « كرانفيلد » هز إليه عصاه تلك الهزة التى جعلت آية صدق البشارة .

قال « رالف كرانفيلد » بصوت مرتجف :

- وماذا ، ماذا عسى أن يكون ذاك المنصب الذى تزعمون أنه معادل لمناصب الملوك والسلاطين ؟ »

فأجاب المزارع « هوكوود » :

- هو منصب معلم مدرسة القرية ، وهو الذى خلا بوفاة المعلم السابق المرحوم ، المستر « هنرى » بعد قيامه فيه خير قيام زهاء خمسة وخمسين عاما » .

قال رالف كرانفيلد :

- سأتدبر الأمر ثم أطلعك على عزيمتى فيه بعد ثلاثة أيام ..

ولما انصرف الوفد أطرق كرانفيلد مليا وأطلق لفكرته العنان فى أودية التأمل ، فبدا له شبه قريب بين وجوه أولئك الرجال الثلاثة ووجوه الأشخاص الخيالية التى كانت تتراءى له فى أحلام يقظته ومنامه ، وحاملة إليه الرسالة الخطيرة ، ولا سيما وجه زعيمهم المزارع « هوكوود » فيا عجبا ! أليس هذا الوجه بعينه هو الذى أطل عليه من قمة هرم الجيزة الأكبر ، وهو بذاته الذى تراءى له بين عمدان قصر الحمراء بالأندلس ، وهو - لاغيره - الذى تبدى له بين سحب الدخان المتصاعد من فوهة « فيزوف » بإيطاليا . وكذلك فى هذه الهواجس وأشباهها سلخ الرجل سحابة يومه ، حتى اذا اصفرت غلالة الشمس وشافه الليل لسان النهار ، نهض عن مجلسه فانطلق من الدار ، ولما صار بفنائها أخذت عينه ثانيا تلك الكلمة التى كان نقشها فى سالف الأيام على ساق الشجرة القائمة هنالك وأبصر شبه كف (ما تكون على قشر الشجرة من إفرازاتها كما أسلفنا) تومىء بسبابتها إلى الكلمة المنقوشة .

ثم سار فى شارع القرية حتى أتى دارا فدخلها فسمع من داخلها غناء حسنا يرتله صوت عذب رخيم ليس بغريب على أذنه ، فأثار ذلك الصوت من أعماق قلبه صدى ذكريات شجية قديمة .

وفيما هو يتقدم فى بهو الدار خرجت إليه من بعض غرفها امرأة صغيرة تسرع الخطو ، ولما بصرت به خفضت من سيرها واتأدت فى مشيتها ، حتى لاقته وجها لوجه ، وقالت له « مرحبا ، مرحبا »

ولكن « كرانفيلد » لم يجبها لأول وهلة ، لقد لمح على صدرها حلية على شكل قلب ، مصوغة من حجر الصوان ، ثم تذكر أنه هو نفسه الذى كان قد اتخذ لها تلك الحلية من بعض السهام الحجرية المعثور عليها كثيرا فى مواطن الهنود الحمر ، وبدت له هذه الحلية أشبه شيء بتلك التى كان لا يزال يراها بعين الوهم على صدر غادته الخيالية ، وكان لما هم بالرحيل فى مهمة مباحثه الوهمية أهدى تلك الحلية فى نصاب من ذهب إلى صديقة صباه وطفولته الآنسة فيث إيجرتون .

وبعد إطراقة طويلة رفع رأسه إلى المرأة الصغيرة وقال :

ـ وكذلك قد احتفظت يا صديقتى بهذا القلب !

فقالت وتوردت خفرا :

ـ نعم ..

ثم استرسلت فى مقالها بلهجة يشوبها المزح والفكاهة ، قالت :

ـ وماذا غير ذلك تحمله إلىّ من أقاصى الأرض ؟

فأجاب رالف كرانفيلد ناطقا بالكلمات المقدرة المحتومة التى جرى بها القلم على اللوح فى الأزل :

ـ لقد جئت أحمل إليك قلبا متعبا منهوكا ، فهل لى أن ألقى عليك أثقاله وأعباءه ؟ »

فأجابته قائلة :

ـ هذه الآية التى مازلت أحملها منذ عهد بعيد هى آية القبول والرضى .

فصاح « كرانفيلد » وضم الآنسة إلى صدره :

حبيبتى « فيث » ! حبيبتى « فيث » ! .. لقد فسرت لى حلمى الغامض المبهم ، ذلك الذى طالما أضنانى وأنضانى ! »

وذاك هو الواقع ، لقد استيقظ الرجل أخيرا من أضغاث أحلامه ، وقد أصاب

تأويلها .

فأما الكنز الدفين فذاك ما أودع الله أحشاء الثرى من جزيل خيراته وبركاته ، وسبيل استخراجه هو الزراعة والفلاحة ، وما ذلك الكنز عليه ببعيد ، وكيف وإنما هو بفناء بيته تشير إليه تلك اليد البادية على الشجرة فوق لفظة « احفر » التي كان قد نقشها بميراته في بعض أحلام أمانيه .

وأما الملك والإمارة والدولة والسلطان والزعامة ، فذاك سيطرته على صبيان القرية وولايته على نفوسهم وأرواحهم بحسن السياسة والتدبير والرعاية .

وأما الغادة الخيالية فلقد انقشعت عنها سحب أوهامه ، فإذا هي رفيقة صباه وحداثته « فيث إيجرتون » .

فياليت كل هائم في أودية الخيال ، وكل جامح في أعنة الوهم ، وكل طامح في شعاب الباطل ، وكل متعلق بأسباب المنى الخداعة ، يفيق من غمرته ، وينتبه من رقدته ، ثم ينظر حواليه فيرى أن بغيته المقصودة ، وأمنيته المنشودة ، تقيم منه على كثب ، بمنال يديه ، ومطرح ناظريه .

فطوبى لمن هداه الله إلى حل اللغز وفك الطلسم ،دون أن يجشم نفسه عناء السفر البعيد ، والجهد الجهيد ، فذلك الموفق السعيد !

الساحر

روى أنه كان ببعض الأقطار الفارسية ملك يدعى فضل الله وكان حسن المذهب محمود السيرة يعيش على أتم وئام مع زوجته الحسناء الأميرة زمرد . ففى ذات يوم قدم على بلاطه درويش من فرقة المتصوفة حديث السن له فطنة وذكاء وظرف وأدب فأقام أياما بين الحاشية والبطانة ، استطاع أثناءها أن يجذب القلوب ويفتن الألباب برقة شمائله وحلاوة ظرفه وحسن حديثه ، فنمى خبره إلى الملك فتاقت نفسه إلى رؤيته وسماع حديثه ..

ولما مثل ذلك الدرويش أمام الملك بحثه فوجد ما شاء علما وأدبا ودهاء وأرباء إلى ذكاء وحدة وحصافة وحكمة ، وتجربة وحنكة ، وألفى حقيقة الرجل فوق ما كان يسمع بأضعاف ، ورأى من عجائب محاسنه ما تعنى به الأوصاف ...

وأستكبر الأخبار قبل لقائه   فلما التقينا صغر الخبر

فقرب الملك مجلسه واختص به من دون الندمان والسمار ، وشغل به عن جميع الوفود والزوار ، ثم عرض عليه أسمى ما لديه من مناصب الدولة ومراتب الإمارات ، فأبى معتذرا بأنه قد عاهد نفسه على أن لا يقلد عملا البتة لإيثاره الحرية على كل ما عداها ..

فازداد الملك به إعجابا وتحفيا وإكراما ..

ولما كانا يلهوان بالصيد ذات يوم فى إحدى الغابات وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع ، أنشأ الدرويش يقص على الملك حديث أسفاره وأخطاره فقال فيما قال إنه كان مرة فى جزيرة من بلاد الهند الشرقية فصاحب بها رجلا برهميا من الواقفين على أسرار الطبيعة وألغاز الكائنات ، قال « وشاء الله أن تكون وفاة ذلك البرهمى بين ذراعى ، فلما جاءت سكرة الموت أومأ إلى أن أصغى إليه ، ثم أفضى إلى بسر من أروع الأسرار ، وأخذ على عهد الله وميثاقه أن أكتمه ما حييت »

قال الملك على سبيل الحدس والتخمين :

« لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة »

قال الدرويش :

« كلا ، بل هو أعجب من ذلك وأغرب ، أتدرى ما هو ؟ هو إحياء جثة ميتة بنقلى روحى إليها »

وبينما هما فى ذلك سنح لهما ظبى فرماه الملك فأصماه ، ثم أقبل الدرويش فقال له دونك جثة هذا الظبى فأرنى آيتك ، فلم يك إلا كلمح الطرف حتى خرج الدرويش من جسده فغادره جثة هامدة ملقاة على الثرى وانسل فى جثة الظبى فأحياها بروحه فأنهضها فإذا الظبى حى يتنزى مراحا ويتوثب ..

يصطلى جمرة النهار ويلهو   بالرخـامى وحلقة العـلام

ويرعى الأعشاب والأكلاء ماشاء ، وبعد برهة خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفى الوقت نفسه شوهد جسد الدرويش يتحرك وبدت عليه دلائل الحياة ثم نهض أصح ما كان وأنشط ، فدهش الملك من هذه المعجزة الخارقة ، وأقسم على الدرويش بكل عزيز عليه إلا ما لقنه هذا السر العظيم ، فأبى الدرويش بادىء ذى بدء ولكنه ما عتم أن أذعن ثم لقنه السر وما هو إلا كلمة بالسريانية .

وأراد الملك أن يجرب السر لتوه ولحظته ، وكانت جثة الظبى لا تزال طريحة على الصعيد ، فعمد الملك نحوها وتلا الكلمة فلم يك إلا كخطف البرق حتى انتقلت روحه إلى جثة الظبى وهوى جسده إلى الأرض ميتا .

وإذ ذاك أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك فنقل إليها روحه ، وتناول قوس الملك فسدد سهمه إلى الظبى (المشتمل على روح الملك) يريد إعدامه ، حتى إذا خرجت روح الملك من جثة الظبى ثم لم تجد جسما تأوى إليه ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح ، وهذا هو الموت بعينه ، وعندئذ يصبح الدرويش هو الملك ، ولا يفطن أحد ما إلى الحقيقة إذ أنه يتقمص جسد الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويجلس على العرش ويحمل الصولجان ، ويقبض على أعنة الدولة ويتصرف فى شئونها كما شاء له الأمر والنهى والعزة والجلال .

نقول سدد الدرويش السهم إلى الظبى ورمى ، ولكن الظبى راغ من السهم وذهب على وجهه فى الغياض والآجام .

وعاد الدرويش فى شخص الملك إلى قاعدة مملكته يترنح طربا ويميس تيها وخيلاء ، فتناول الصولجان وتبوأ أريكة الملك السابق وافترش فراش زوجته .

ولكى يأمن عدم زوال هذا الملك المغتصب والتاج المستلب ، أصدر أمره إلى الرعية بإعدام كل ما تحويه الآجام والغابات من الظباء ، حتى يهلك فى جملتها ذلك الظبى الذى يشتمل على روح الملك الحقيقى ، ولكن ذلك الملك أفلت من سهام الرماة إذ نقل روحه عن جسد الظبى إلى جثة بلبل ميت كان قد أبصرها ملقاة على الأرض عند أصل شجرة .

وفى هذا الشكل الجديد طار إلى بستان قصره ، حيث كان الدرويش يعيش على أسعد حال مع الملكة من حيث لا تشعر هذه الزوجة الصالحة أنها قد ابتذلت خدرها لروح غير روح زوجها .

هنالك وقع الملك المتقمص جسد البلبل على فنن آيلة مطلة على نافذة مقصورة الملكة ، وشرع يغرد بأشجى الألحان حتى هز برنين سجعه أركان المكان فاستهوى الملكة وافتتنها بأعاجيب أناشيده ، ولكن سرور الملكة أحزنه وغمه ، وكان يريد أن يهيج أحزانها ويثير أشجانها ويستدر رحمتها وحنانها .

ولبث ردحا من الزمان يحييها بألحانه صباح مساء .

واستدعت أحد الخدام فأمرته أن يبذل ما فى وسعه لاقتناص ذلك البلبل ، على أن البلبل (أى الملك) لم يحوج الخادم إلى بذل أدنى مجهود ، بل وقع فى يديه طائعا مختارا منتهزا هذه الفرصة للدنو من الملكة زوجته ، ولما عرض عليها وكانت طائفة من وصائفها معها ، عجب الكل لما رأينه ينفر منهن جميعا إلا الملكة ، فلقد سقط عليها وجعل يتمسح بها ويتشبث بأردافها ثم اختبأ فى جيبها ، فسرت الملكة بما أبداه من فرط التحبب إليها والتحدب عليها ، دون غيرها من الحضور ، وأمرت به أن يجعل فى قفص من الذهب مفتوح النوافذ فى غرفتها .

وكذلك جعل البلبل يبدى للملكة من أساليب الملاطفة والمطايبة أقصى ما تسمح به خلقته الجديدة ، وجعلت الملكة تقضى الساعات الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته ، ووجد البلبل ـ أعنى الملك ـ سلوة وعزاء فى حاله هذه مع الملكة ، بل وجد نوعا من السرور والغبطة لولا ما كان يكدره أحيانا من دخول الدرويش

عليها فى تلك الأوقات ، وما كان يراه من مغازلته الملكة وتجميشها بمشهد منه ومسمع .

وكان صاحب العرش (الدرويش) كثيرا ما يحاول استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ كان كلما ازداد تقربا من البلبل ازداد ذلك منه تجافيا ونفورا ، بل ربما أوسعه نقرا بمنقاره ، وضربا بمخلبه .

وكانت الملكة زمرد كلفة بكلب مستأنس يبيت معها فى حجرتها ، فاتفق أن مات هذا الكلب ذات ليلة وأهل القصر نيام أجمعين ، فلما أبصر البلبل هلاك الكلب تاقت نفسه إلى أن يتقمص جثته وما لبث أن صنع ذلك ، فلا تسل عما أصاب الملكة من فرط الكمد والجزع عندما استيقظت صباحا فرأت حبيبها البلبل ميتا ، فاستدعى الملك (الدرويش) وصائفها وأقبل معهن يعزيها عن البلبل ويسليها عن مماته ويقنعها بخطئها فى تعذيب نفسها حزنا على هلاك طائر حقير ، ولكن عبثا حاول وحاولن .

وطفقت الملكة تبكى وتنتحب انتحابا أذاب كبد الدرويش ، حتى وعدها أن يرد الروح إلى بلبلها ، فعند ذلك كفكفت الملكة من غرب مدامعها وسألته مندهشة كيف يكون ذلك وأنى له بإحياء الموتى ، وأى امرىء يستطيع هذا . وهنا انطرح الدرويش على مقعد وأرسل روحه فى جثة البلبل فعاش بإذن الله المحيى المميت المبدىء المعيد ، وبلغ العجب والاندهاش والذهول من الملكة أقصى مبلغ .

وكان الملك يشاهد كل ذلك من عينى الكلب الذى كان قد تقمص جثته ، فما كاد يبصر الدرويش قد خرج من جسمه (أى من جسم الملك الحقيقى) حتى خرج هو من جثة الكلب كالسهم المارق فدخل فى جسم نفسه قائلا « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .. ثم هجم على البلبل المشتمل على روح الدرويش فكسر عنقه ، فجددت الملكة عند ذلك عويلها ونحيبها ولكن زوجها الملك ما لبث أن أطلعها عل حقيقة الحال من المبدأ إلى النهاية مؤيدا قوله ببرهانين ناصعين :

١ ـ جسم الدرويش الذى كان لا يزال منطرحا على الصعيد بالغابة .

٢ ـ الأمر الذى كان أصدره الدرويش بإعدام جميع ما بالبلاد من ظباء .

وأراد الملك أن ينعم بزوجته بقية العمر فى رغد وصفاء ، ولكن ما أصابها من شدة الحزن لما قضاه الدرويش معها من أوطار محرمة عن جهل منها بالحقيقة قدح فى أحشائها ، وأذاب سويداء قلبها ، فجعلت تضنى وتضوى فى خفوت وسكوت ، وظلت روحها الطاهرة الكريمة تذوى وتذبل على كر الأيام والليالى كالزهرة الغضة اصطلحت عليها الأعاصير والعواصف ، وتتساقط كالشمعة يتحيفها اللهيب حتى انطفأ سراج حياتها وانتقلت عن معالم الأشباح إلى عالم الأرواح .

وجزع زوجها عليها أشد الجزع ولبس الحداد ، ولم يطل بعدها بقاؤه ، فعدت بينهما ليال ارتحل فى نهايتها إلى جوار زوجته .

وإن تصب أحـدا منا منيته لابد فى غده الثانى سيتبعه

صفقة رابحة

إن الذين نشأوا فى النعمة والرفاهية قلما يدرون ماذا يلاقى إخوانهم الفقراء من ضروب المحنة والبلاء ولا ما يضطرون إليه من عجيب الحيل والتدابير لاستدرار الرزق من سم الخياط ..

بهذه الفكرة وأمثالها ملء رأسى .. ذهبت إلى أحد المرابين من عملاء والدى المرحوم لاستعينه على محن الأيام ، ولما التقينا أخذنا نتصفح وجوه الرأى ونطرق أبواب الحيلة ، إلى أن سنحت له فكرة حمدها وحمدتها واستقر عليها رأيه ورأيى ..

قال « هلم معى إلى إحدى شركات التأمين على الحياة ، فنطلب إليها أن تؤمن على حياتك ، وقد أعلم أن ظاهرك وما يبدو عليك من علامات الصحة والقوة سيخدعهم فيمنحونك مكافأة جسيمة (يأخذها ورثتك بعد مماتك) ثم لا يأخذون منك سوى مبلغ زهيد جدا ، أتولى عنك دفعه كما أعلم أن باطنك خلاف ظاهرك وإن ما قد اعتدته وألفته من إدمان المسكرات والانهماك فى الشهوات لن يمهلك فى هذه الدنيا إلا أمدا قصيرا . فإذا حان أجلك ولا أرى ذلك بعيدا ـ أرثك فى المكافأة بموجب عقد تحرره لى بهذا ، ومقابل ذلك أنقدك مقدما نصف هذه المكافأة تفرج بها كربتك وتكشف غمتك وتقضى البقية الباقية من عمرك فى رغد ورخاء ، أما أنا فحسبى أن تؤول لى المكافأة بعد وفاتك » ..

وعلى ذلك توجهنا إلى مكتب شركة من تلك الشركات فألفينا به طائفة من الأشقياء المنكوبين أمثالى من المساهمين بأعمارهم المضاربين بحياتهم استجلابا للأرزاق والأقوات ، وكانوا جميعا أحراضا هلكى محطمين مضعضعين متهدمين قد أمعنت فيهم العلل والأمراض وهم يحسبون أنهم أبقى على الأيام من الأعلام والأطواد ، وأشد بنية من قوم عاد ، وأنهم فى هذه الدار مخلدون ، ومنتظرون إلى يوم يبعثون ..

وعبثا كانت لجنة الكشف تحاول إقناعهم أنهم بمنزلة بين الأحياء والأموات ،

وأنه يوشك أن ينعاهم النعاة ، هؤلاء كان نصيبهم من الشركة الرفض البات .
ثم جاء بعد ذلك رجل بادن صلب متين تخاله عملاقا من العمالقة يخيل إليك أنَّ عزرائيل سيشتبك معه فى معركة هائلة ، الله وحده يعلم أيهما يخرج منها ظافرا ..

قال له رئيس لجنة الكشف :

« كم سنك ؟ .. »

« أربعون .. »

« الظاهر انك رجل قوى .. »

« أنا أقوى رجل فى أرلندة .. »

« ولكنك مريض بالنقرس .. »

« كلا ، بل بالروماتزم ، الروماتزم فقط ليس إلا ، وأيم الله .. »

« فى أية سن مات أبوك ؟ .. »

« مات صغيرا ، ولكنه لم يمت حتف أنفه ، إنما هلك فى مشاجرة »

« ألك أعمام على قيد الحياة ؟ .. »

« كلا ، لقد هلكوا جميعا فى مشاجرات .. »

« أى ضمان لنا أنك لن تهلك أنت أيضا فى بعض المشاجرات كما هلك أبوك من قبل وأعمامك .. »

« لا تخافوا من هذه الناحية ، إنى ألين الناس جانبا وأرقهم حاشية إلا إذا سكرت وذلك ليس فى كثير من الأحايين .. »

« وكذلك تشرب أحيانا يا سيدى ؟ .. »

« ثلاث زجاجات من الوسكى بكل سهولة .. »

« هذا خبر سىء يا صاحبى ، ومن ثم تلك الحمرة الشديدة فى وجهك وعلى الأخص فى أنفك ، وأراك بعد عرضه للفالج وللموت الفجائى »

« لا صحة لقولك .. أما وجهى الأحمر ، فلقد ولد معى حين ولدت ، وأما ما تتنبأه لى من قصر أجلى فمهما قصر فلن يقل عن مجموع ثلاثة أعمار من

أعماركم .. »

« ولكن ثلاث زجاجات من الويسكى .. ! »

« اطمئنوا من هذه الوجهة ، فلأعدنكم أنى لن أشرب أكثر من زجاجتين فى اليوم من الآن فصاعدا . هذا ولقد عزمت على الزواج والعيشة الهادئة المعتدلة .. »

وبعد المداولة أقرت اللجنة قبوله بشرط أن يدفع مبلغا إضافيا على سكره ومشاجراته .. »

وهنا جاء دورى ، وبينما كان صاحبى المرابى يسوقني إلى اللجنة عاق مسيرى دخول سيدة صغيرة آية فى الجمال على ثياب الحداد فأحدث جمالها فى قلوب الحاضرين حتى أعضاء اللجنة ذوى القلوب الحجرية الجلمدية أبلغ أثر ، فسألها الرئيس على الفور أن تأخذ مجلسها بإيزائهم على المائدة وتناول مسألتها وما هى إلا أنها تعرض نفسها على اللجنة وتؤيد حقها فى تقاضى العشرين ألف جنيه التى كان زوجها المتوفى أمن حياته عليها ..

فقلت فى نفسى ..

« فرصة سعيدة ، إن أضعتها كان الإعدام أقل ما تستحقه ! .. فرصة هائلة ! .. عشرون ألف جنية ذهب ، وامرأة من أجمل نساء العالمين ، لئن أضعتها كان الحمار أرجح منك عقلا » ..

وقال رئيس اللجنة :

« صفقة رابحة يا سيدتى تلك التى باء بها زوجك المتوفى ، لقد أخبرته أنه رجل مسن عليل لا يؤمل أن يعيش طويلا ، ولكنى ما حسبت قط أن أجله سيوافيه بمثل هذه السرعة .. »

قلت فى نفسى :

« رجل مسن عليل ، لاجرم أن السيدة لابد أن تتزوج قريبا، فتلهفت أشد تلهف على أن يجرى امتحانى أمامها لتسمع من حسن شهادة اللجنة عنى ما يرفعنى فى نظرها » وأسعدنى الحظ بهذه الأمنية ، فاضطرت السيدة إلى البقاء مكانها ريثما تستحضر بعض المستندات اللازمة لإنهاء مسألتها ، وفى خلال ذلك تقدمت إلى اللجنة بمنتهى الجرأة ..

وقال صاحبى المرابى :

« اسمحوا لى أيها السادة أن أقدم إليكم المستر – صديقى الحميم الذى يريد التأمين على حياته ، وقد ترون أنه صحيح البنية معافى فى بدنه وليس من صف المشرفين على الهلاك .. »

فصوب الأعضاء إلى نظرة ارتياح ، ولكن الذى سرنى وأبهجنى أن السيدة الحسناء فعلت كذلك ..

وقال أحدهم :

« أراك عريض المنكبين متين الألواح ، وأحسب رئتيك سليمتين »

وقال آخر :

وأراك شديد الوطأة ثابت مكان القدم لا يخشى أن تصرع فى معاركة »

وقال ثالث :

وأراك مضبور الخلق مدمج المفاصل ، ما بك من ترهل ولا استرخاء مما يعترى مدمنى الشراب » .

وآنست أثناء هذا التقريظ والإطراء أن السيدة كانت تبتسم وقد همت أن تضحك مرتين أو ثلاثا ، فاعتبرت ذلك منها كابتداء للمناورات والمناوشات معي. ولما أمرت أن أذهب إلى الغرفة المجاورة للكشف الطبى تاقت نفسى إلى أن أسألها انتظارى حتى أعود ، ولم ألبث أن رجعت بأحسن شهادة على جودة صحتى وقرأها الرئيس بصوت جهورى وهنأنى الأعضاء على نجاحى الباهر وقهقهت السيدة ضاحكة ، وانتهت مسألتى ومسألتها فى وقت واحد ، وهبطت السلم وأنا على أثرها .

وقال لى صاحبى المرابى .. « أيان تسرع كمن أصابه جنون ؟ .. » .

قلت « أشيع هذه السيدة إلى مركبتها » .

ولقد شيعتها فعلا إلى باب المركبة ، ولما تبوأت أريكتها أومأت برأسها أرق تحية وأرشقها وضحكت إلى ثانية ، وسألت الخادم أن يسوق إلى البيت ..

قلت « وأين البيت يا جون ؟ » :

قال الخادم « رقم .. شارع .. يا سيدى .. » ثم انطلق بالمركبة ..

وسرت والمرابى ، كلانا ممعن فى شعاب أفكاره ، سادر فى بيداء أحلامه وأوهامه ..

وقال لى أخيرا :

« فيم تفكر يا فتى ؟ .. »

« أفكر فيك هل ربحت صفقتك معى أم خسرت ؟ .. »

« وكيف ذلك ؟ .. »

« لأنك ما دخلت معى فى تلك المساومة ولا غرمت لى ما ستقدمه إلى حر مالك إلا ثقة منك بقصر عمرى وقرب أجلى من جراء إدمانى الشراب وانهماكى فى الشهوات والملاهى .. ولكنى أحسب أنه قد خاب ظنك وطاش سهمك ، فإنى من الآن فصاعدا سأعيش مع زوجتى أقوم عيشة وأنقاها وألزم من الصلاح والتقى مذهبا تضمن معه العافية والسلامة وطول الحياة » ..

« زوجتك ؟ .. ومن عسى تكون زوجتك ؟ .. »

« تلك السيدة الحزينة التى انطلقت على مركبتها آنفا . قد تضحك سخرية منى ومن قولى ، ولكن إن شئت فراهنى بمبلغ المكافأة التى ستقبضها بعد وفاتى مقابل المبلغ الذى أستحقه منك الآن ـ على أن زوجتى الجديدة هذه ستصلح من شأنى وتطهرنى من مدانس مآثمى وتسلك بى من النزاهة والاستقامة المسلك المؤدى إلى السلامة وامتداد الأجل » ..

« قبلت رهانك » .. وفرح بما خاله مضاعفة لأرباحه على حسابى ..

وعلى هذا مضينا إلى أقرب قهوة فحررنا عقدا بذلك .. قاتل الله الحياء والخجل ، إنه العقبة الكؤود فى سبيل النجاح ، والسد المنيع دون مطايب هذه الحياة ومباهجها ، وأقسم ما رأيت امرأً قط استطاع مع حيائه وخجله أن يخرج من ضيق الشقاء إلى فسحة النعيم ولا من ظلمة النحس إلى ضياء السعادة ، أما أنا فمن أجل نعم الله على أنه جردنى من كل أثر من الحياء وعرانى من كل ما يسمى أو يتوهم خجلا ، وعلى هذا ألفيت نفسى فى غد ذلك اليوم واقفا بكل برود على باب تلك السيدة ، بل ألفيت نفسى أتناول حلقة الباب وأقرعه بلا رقة

ولا تلطف ، وبلغ من فرط انشغال ذهني بالتفكير فيما كنت أنتظره من ثمرات هذا الزواج المؤمل من المناعم والملاذ ـ أني ألفيتني في حجرة الاستقبال دون أن أكون قد هيأت من الكلام ما أقدمه معذرة عن فضولي وتطفلي وهجومي الوقح المستنكر .

وبينما أنا في انتظار السيدة وقد كاد فؤادي يذوب رقة وصبابة لجمال ما كنت أشيده حولي من قصور الأماني البللورية وسرادقات الأحلام السندسية إذ فتح الباب ودخلت الحسناء ، وكان استقبالها لي ينم عن رقة وأدب يشوبهما شيء من الحشمة والانقباض. وآنست أنها إما أن تكون قد نسيتني أو أصرت على إنكاري ، ولم أكن أعددت نفسي لمثل هذا السلوك منها ، فعراني ارتباك وحيرة بالرغم من جراءتي الغريزية ، وقلت في نفسي لقد أخطأت إذ تصورت ضحكات السيدة من كلمات لجنة الكشف في تلك الظروف المضحكة حركات مقصودة منها تريد بها مناوشتك ومجاذبتك على حين أنها لم تقصد إلى شيء من ذلك ، وجال بخاطري أن أعتذر بأني كنت أريد منزل سيدة غيرها فأخطأت المرمى ثم أنسحب . ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن طاحت أمام جمالها الباهر وحسنها الفتان وقلت في نفسي أمجنون أنت حتى تتقهقر بلا موجب .

وقلت يمين الله أبرح ههنـــا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

حقا ما كان شيء قط ليخرجك من ههنا دون ضرب النعال .. وقلت ودمي يغلي غليانا .

« سيدتي ، لقد كان بين أبي وزوجك المرحومين أمتن صلاة المودة والإخاء قبل أن يرحل بي أبي إلى جزائر الهند الشرقية ، وقد تم قرانك بزوجك المرحوم وحانت وفاته قبل عودتي ، وقد مات أبي بدار الغربة وأوصاني وهو على سرير الموت أن أجدد مع زوجك صلات الوداد لدى عودتي ، ومنذ عدت لن آل بحثا عن زوجك إلى أن علمت ما كان من أمر اقترانه بك ثم وفاته ، وقد جئتك اليوم ومقدما نفسي كأقل خادم من خدامك لا أدخر جهدا في خدمتك وقضاء كل ما عساك تكلفينني مضحيا في سبيل ذلك كل ما أملك ولو كان روحي الذي بين جنبي »

ولا تسل عن فرط دهشة السيدة وتعجبها من مقالى .

وقالت إنها لم تسمع قط من زوجها أدنى إشارة إلى تلك القصة ولا كان منه قط أنه ذكر اسم والدى ولا كنية ولى عهده « وليم هنرى توماس » (يعنى أنا) طول مدة حياته معها .

قلت « قد يكون ذلك حقا يا سيدتى ، بيد أنى لست مؤاخذا زوجك المرحوم على إهماله أن يذكر لك ذلك الحديث ، ولقد كان له من ذهول السن العالية والمرض المزمن أوضح عذر وأبينه ، ولقد أعجلته المنية أن يسعد خلانه وإخوانه بتقديمهم إلى أجمل نساء هذا العالم » ..

وكذلك استطعت بفضل جرأتى ولباقتى أن أقف السيدة بمنزلة بين الشك واليقين وهذه خطوة فسيحة ونتيجة حسنة إذا نظرنا إلى ضعف الأساس الذى أبنى عليه ونزارة المادة التى أنسج منها ، ولا جرم فلقد كنت كمن يحاول أن يشيد فوق صفحة الماء إيوانا ، ويحوك من خيط العنكبوت طيلسانا .

ولما فرغت من هذه الحملة المظفرة الميمونة وأخذت أول حصن من الحصون الأمامية رأيت أن أوجه قوتى فى طريق آخر من طرق المؤانسة والمداعبة ، والحرب فنون ، فأجلت عينى فى أنحاء الغرفة فأبصرت على بعض الجدران صورة « أبولو » إله الجمال ، فقلت :

« لقد افتن المصور أيما افتنان ، وأحسن غاية الإحسان ، بيد أنه لو كان زاد قليلا فى عرض المنكبين لكان أروع لصورته وأحرى أن ينال عليها من شركات التأمين مبلغا جسيما لو شاء أن يتقدم بها إليها »

وقصدت بذلك إلى تذكيرها بما كان قاله عنى أحد أعضاء تلك الشركة بمسمع منها إذ قال لى « أراك عريض المنكبين »

ولقد أصاب سهمى المرمى فتبسمت

كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح .

وذلك ما كنت أبغى ..

وكذلك بدد بريق ابتسامتها ما كان لايزال مخيما على قريحتى من سحب الوحشة وظلمات الاحتشام ، فانطلقت من كل قيد ، وجريت من ميدان البلاغة

فى كل مضمار . وتدفقت من حومة الفصاحة فى كل تيار ، وجنيت من كل بستان إيناس ثماره ، وحكيت من كل روض إطراب قمريه وهزاره ، متنقلا من جد إلى هزل ومن حزن إلى سهل ، بكلام يمتزج بأجزاء النفس رقة وبالهواء لطافة وبالماء عذوبة ، وملح كنوافث السحر ، وفقر كالغنى بعد الفقر .

وأنشدتها فى ثنايا محاضرتى ، وغضون محاورتى ، نبذة من قصيدة مستحدثة لشاعر عصرى ، وكذلك انقضت ثلاث ساعات دون أن يتطرق إلينا الملل ، ونسيت السيدة ما كان قد غشينى أول التقائنا من سحب الريبة والظنة وكانت تجاذبنى أهداب الحديث ببراعة توازى براعة حسنها الفائق .

ولما استأذنتها فى الزيارة غداة الغد أجابت بالقبول .

فمضيت إلى منزلى أسعد الناس طرا وأشدهم حرصا على حياته ، فجعلت أنظر إلى مواطىء قدمى خيفة أن أسقط فى إحدى بالوعات المجارى العمومية . وكلما هممت أن أعبر الطريق أخذت أتلفت يمنة ويسرة خشية المركبات والسيارات ،ولما وصلت إلى المنزل ألفيت رسالة من صديقى المرابى يخبرنى أنه قد حصل لى على وظيفتين إحداهما باش شاويش » فى فرقة موجهة إلى جزائر الهند الغربية والثانية مبشر فى « نيوزيلنده » فحررت إليه أنه سيان عندى أن أموت ضحية الحمى الصفراء أو فريسة أكلة اللحوم من همج أستراليا ، ولكن لدى من الأعمال الهامة ما يمنعنى الآن من قبول أية الوظيفتين .

وفى اليوم التالى حظيت بلقاء السيدة وصافحتنى بنانها اللدنة الرخصة وابتسامة الأليف لأليفه ، وسلخت بياض النهار معها بين المعجب المطرب من شهوات السمع والبصر من لؤلؤ يجلوه مبسمها الدرى . ولؤلؤ يساقطه حديثها الشهى :

ظللنا بهذا الديدن اليوم كله كأنا من الفردوس تحت خلود

وتوالت على هذا الحال أيام عديدة إلى أن دخلت عليها يوما فألفيتها على خلاف عادتها مطرقة حزينة ،وكانت جالسة إلى منسج التطريز فجلست بإزائها وقالت :

« يدور بخلدى أنى قد خدعت خداعا شائنا » ..

قلت « ممن ؟ .. »

قالت « من رجل له عندك مكانة عظيمة » ..

« ومن ترين يكون هذا ؟ »

« هو أنت بلا ريب » .

« وما تلك الخديعة ؟ »

« لقد آن أن تصرح لى أن قصتك عن علاقة أبيك بزوجى المتوفى والرحلة إلى جزائر الهند الشرقية وسائر الرواية إنما هى محض اختراع وتلفيق » .

فنهضت من مكانى وأهويت إلى يدها فقبلتها ، وقلت :

« سيدتى ، بماذا يتقرب العاشق المستهام وبماذا يزدلف المحب الودود .

أقيمت حفلة القران بعد أسبوعين من ذلك اليوم .

وحررت إلى صديقى المرابى الرسالة الآتية :

« عسى أن يسرك ما قد آل إليه أمرى من حسن العاقبة وحزيل النعمة ، وإن ساءك أنك قد خسرت الرهان . ولما كنت قد أزمعت أن أقف مكافأة الشركة على زوجتى ، فسأبذل لك من جاهى ومنصبى فى سبيل الحصول على وظيفة تليق بمقامك السامى الرفيع كوظيفة (باش شاويش) فى الفرقة الراحلة قريبا إلى جزائر الهند الغربية ، أو كوظيفة مبشر فى « نيوزيلنده » .

وتفضل بقبول فائق احترامى

حديث امرأة

كان « بيوتر سرجيتش » صديق أسرتنا كثير التردد على دارنا وذلك منذ عشرة أعوام وكنت إذ ذاك فتاة فى الثانية والعشرين .

فى ذات عشية خرجت وذلك الرجل نقصد مكتب البريد لننظر هل به رسائل إلينا وكان الجو صحوا صافيا ، ولكنا سمعنا أثناء عودتنا قصفة من الرعد ورأينا سحابة مكفهرة تسرى نحونا ، وكانت دارنا تبدو من وراء تلك السحابة الحالكة بيضاء ناصعة والدوح الباسق كأنه عمدان من الفضة ، وكان الهواء مفعما برائحة المطر ورائحة العشب المحصود ، وكان صاحبى مفعما طربا وجذلا يديم الضحك والكلام هراء ولغوا .

فقال إنه ليود أن يصادف فى طريقه قلعة من قلاع العصور الغابرة ذات أبراج ومعاقل عليها العشب ينمو والبوم تصيح والغربان تنعب فندخلها ونستظل بحصونها من العاصفة ثم تنزل بها الصاعقة فتهلكنا ونحن محتضنان متعانقان يلفنا الحب من رأسينا إلى قدمينا وحبذا تلك من ميتة يملؤها الحب حياة ـ ولا ممات فى الحب !

وأركض « بيوترسرجيتش » جواده وهو يصيح :

« ما أبدع هذا الجو وما أروعه ! »

وأعدانى طربه وسروره فطفقت أضحك إذ علمت أن السماء ستغرقنى فى الحال بوابل وربما أخذنى البرق بصاعقة

ولما دخلنا ساحة دارنا كانت الريح قد فترت وأخذ القطر يكف على الثرى وأسقف المنازل ولم يكن بفناء الدار إنسان .

فترجلنا وساق « بيوتر » الجوادين إلى الإصطبل ثم ما لبث أن عاد إلى وهو يقول ما أشد زمجرة الرعد ، وكان قد قصف قصفة خيل إلى أن السماء من هولها قد انصدعت .

ثم وقف إلى جانبى تحت مظلة الساحة وأطال النظر فى وجههى وأبصرت

نار الغرام تتوقد فى لحظه .

وقال :

«اسمعى يا ناتاليا ، بودى أن أضحى بكل عزيز لدى فى هذه الدنيا مقابل أن أقف معك هنيهة فأنظر إليك ، سبحان ربى منشئك . وباريك كيف أبدع مبانيك وأدق معانيك »

جـــل كاسى طينكم صيغته   كيف صاغ الطيــس لما عجنه

وكانت عيناه ترنوان إلى عن طرب واسترحام وكان وجهه شاحبا ، وكانت قطرات المطر تتلألأ على شاربيه ولحيته ، وكأن تلك القطرات ذاتها كانت أيضا تنظر إلى عن غرام ولوعة

قال « بيوتر »

« إنى أحبك ، أحبك وفى النظر إليك سعادة أى سعادة ! قد علم أن من المحال أن تكونى يوما زوجتى لبعد ما بين منزلتى ومنزلتك بما أنك من عليا طبقات الأرسطوقراطية وما أنا إلا موظف صغير - وكيل النيابة .

- ولكنى لا أطلب أن تكونى يوما ما زوجتى ، كلا لست من الحمق والضلالة بحيث أطلب ذلك أو أتمناه أو أطمح إليه ، بل كل ما أريده هو أن تعلمى أنى أحبك ، لا تتكلمى لا تجيبى ، لا أريد على كلامى هذا منك ردا ، اسكتى ولا تبالى ولا تحفلى بكلماتى هذه وقدرى أنك لم تسمعيها وكل ما أبغيه منك أن تعلمى أنى أحبك وأن تسمحى لى أن أنظر إليك »

فأثر فىّ ولهه وهيامه أشد تأثير ، فنظرت فى وجهه المتوقد وأصغيت إلى صوته المتقطع الممزوج بحفيف المطر،وثبت مكانى لا حركة بى كأنما أصابنى سحر ساحر .

وددت لو بقيت أبد الآبدين أنظر فى عينيه المشرقتين وأسمع حديثه . وقال « بيوتر سرجيتش » : أراك لا تقولين شيئا وذلك ما كنت أبغى ، ألا فاستمرى ساكتة »

لقد شعرت إذ ذاك بمنتهى السعادة ، فجعلت أضحك سرورا وجذلا ثم انطلقت أعدو تحت وابل من السماء مدرارا إلى البيت ، وانطلق يعدو ورائى

يضحك ويتوثب

ثم صعدنا السلم فى جلبة وضوضاء كأننا طفلان لعوبان واندفعنا فى حجرة الجلوس نلهث من شدة العدو وقطرات المطر تتساقط من أردانا - ودهش أبى وأمى إذ أبصرانى على تلك الحال من الضحك والخفة والنزق خلافا لما يعهدانه فى من الوقار والحشمة ، فأخذا يضحكان أيضا .

انقشعت سحب العاصفة وسكنت الرواعد ولكن قطرات المطر لم تزل تتلألأ على لحية « بيوتر » وشاربيه ، ولبث ذلك الرجل إلى منتصف الليل على أتم حال من المزاح والطرب يشدو ويترنم بشتى الأناشيد والأغانى ، وتارة يصفر وأخرى يصفق وأحيانا يلاعب كلب الدار ويداعبه ويجاريه حول الحجرة ويسابقه ولما قدم العشاء أكل كثيرا جدا وتكلم كثيرا جدا .

وجعل يقول إن الخيار الغض الطرى إذا أكل فى الشتاء كان له فى الفم أرج الربيع ورياه .

ولما ذهبت إثر السهرة إلى الفراش أسرجت شمعة وفتحت النافذة على مصراعيها وأحسست أن شعورا مبهما غير محدود ولا معهود قد استولى على أنحاء روحى ، وتذكرت أنى حرة طليقة ممتعة بالصحة والعافية ، بالجاه والمنصب والثروة . ثم مستنى نفحة من الهواء تحمل الطل والندى سرت إلى من الحديقة فانقبضت فى ثنايا الفراش وأخذت أبحث من أعماق نفسى أكنت أحب « بيوتر » أم لا ، وأخذنى النوم قبل أن أحل هذا المشكل . ولما انتبهت فى الصباح ونظرت على فراشى لمعا من ضياء الشمس وظلال الشجر استعادت ذاكرتى كل ما كان من حوادث الأمس ، وأشرقت لناظرى صورة الحياة حسناء مونقة مملوءة بأفانين الجمال والجلال والروعة والبهاء مثرية من ضروب الملح والتحف والمتع والملذات ، ساحرة فتانة ، فلبست ثيابى وانطلقت أترنم إلى الحديقة .

وماذا جرى بعد ذلك ؟ لاشىء ! انتقلنا فى الشتاء إلى المدينة (موسكو) وتركنا جارنا بيوتر سرجيتش » فى القرية يزاول أعمال وظيفته ، وكان يزورنا من آن لآخر ، وأحيانا يذكر لى الحب ، ولكن أحاديثه الغرامية كانت فى المدينة أقل تأثيرا فى نفسى منها فى الريف حيث كنا فى المدينة أشد شعورا بالفارق

العظيم والحجاب المنيع الحائل بيني وبينه فلقد كنت ذات منصب وثروة وكان فقيرا - ابن قسيس وموظفا صغيرا ، وجعلنا نرى هذا الحائط الحائل بيننا وكأنه على أقصى غاية من الضخامة والارتفاع والسمك والمناعة ، لقد أعلم ، أنه ليس من حائط مهما عظم وضخم إلا وفى الإمكان اختراقه ، ولكن عشاق هذا العصر مجردون من الإقدام والبسالة ، عراء من الهمة والعزيمة ، صفار من الفتك والبطولة - مكاسيل متبلدون ضعاف أنكاس لا قبل لهم باقتحام العقبات وركوب الأهوال ملئون بالتشاؤم إلى القول أميل منهم إلى الفعل ، وإلى النقد والتفلسف أسرع منهم إلى الكفاح والجهاد ، ويتهمون العالم بالسخافة وقد نسوا أن انتقاداتهم لابد أن تصبح على كثرة التكرار سخيفة .

لقد صادفت على طريق الحياة رجلا برا كريما طيب القلب أحبنى حبا يقرب من العبادة ولاح لى كوكب السعد وأزهرت من حولى جنة الأمل دانية القطوف فى أكامها ثمر الأماني يانعا ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من السعادة وكنت بها قمينة ، ولكنى أضعت الفرصة فعادت غصة

كم من مؤخر فرصة قد أمكنت   لغد وليس غد لهـــا بموات

حتى إذا فاتت وفات طلابهـــا   ذهبت عليها نفسه حسرات

لقد مضيت على طريق الحياة مغمضة العينين عمياء عن مواطن المنفعة ومكامن السعادة غافلة عن فرص النعم والعطايا جاهلة بنفسى وقدرى وقيمتى لا أدرى ماذا ينبغى أن أنتظره من هذه الحيـاة ولا ماذا يجب على أن أطلبه وأحصل عليه لنفسى

وكرت الأيام والليالى وتتابعت السنون وتعاقبت الحقب والأزمان . ومرت بى صنوف الناس ينعمون بمحياتهم وموداتهم المتبادلة ومرت بى الأيام المشرقة والليالى المتألقة ، وناح البلبل المغرد صداحا ، وفاح النرجس الغض نفاحا . مضت كل هذه المباهج والمناعم والمطارب مر السحـاب ومـا قدرتهـا حق قدرهـا ولا استثمرتها حق استثمارها . مضت وما خلفت أثرا وزالت وكأنها لم تكن .

لقد مات أبى وكبرت وذهبت نضرة الشباب ، وكل ما كان يسرنى ويطربنى ويملؤنى أملا - ذهبت بمتعها تلك الليلة المعهودة التى فاتحنى فيها ذلك الرجـل

حديث الغرام وكاشفنى سر الصبابة - ذهبت وملاذها من حفيف القطر الواكف ولمع البرق الخاطف وهدير الرعد القاصف وشكوى الهوى ، ونجوى المنى ومستعذب الأحلام ، ومستلذ الخواطر والأوهام - تقضي كل ذلك ولم يبق منه إلا اسم بعد جسم ، وذكريات تجول فى جوانب الوهم ، وأصبحت لا أبصر أمامى سوى صحراء مقفرة ليس على أرضها شبح من الأنس ، ولا فى سمائها من الشهب إلا كواكب النحس .

* * *

دقة على الباب ! من الطارق ؟ هو بيوتر سرجيتش .

إنى إذا نظرت الشجر عاريا حزينا تذكرت الشتاء وتذكرت كيف كان مورقا طريفا فى الصيف ، وكيف كان يومئذ يحنى طلقا مبتهجا ضاحكا

كأن طائره نشوان من طرب   والغصن من هذه الأعطاف نشوان

هاج بى الحنين والذكرى ، وصحت : واحسرتاه ! وكذلك إذا رأيت إنسانا كان لى خليلا أيام الصبا والحداثة وقضيت معه زهرة الشباب ، عرانى الأسى وملكنى الطرب والحنين وصحت أيضا : واحسرتاه !

وكان « بيوتر سرجيتش » بفضل مساعى والدى قد نقل إلى محاكم موسكو منذ أعوام، وكان قد أسن ووخط رأسه المشيب وقد كف منذ حين عن إعلان حبه وشكوى غرامه، وكف أيضا عن أمازيحه وهزلياته وضحكه ولعبه، وأخذ يسأم أعمال وظيفته ويمقتها، وتولاه انقباض وهم وكآبة وكأنه أفاق من سكرة الشباب وصحا من أحلام الصبا والصبابة، وكأنما انقشعت عن عينيه غشاوة الغرور فتجلت له الحياة مجردة عن ثياب خدعها عارية من زخارف زورها وباطلها فصح عليه قول القائل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

فانصرمت من الدنيا حبال أمله ، وانفصمت من الحياة عروة رجائه

رجع اليقين مطامعى يأسا كما   رجع اليقين مطامع المتلمس

فهاجر الدنيا وحرم على نفسه التمتع بمحاسنها الكاذبة ، والهيام فى أثر زخرفها وزينتها ، وكف عن محاولته اجتناء ثمرها ، واختلاب درها .

دخل الغرفة فحياتى فى خفوت وجلس إلى الموقد صامتا حزينا .

وتحيرت لا أدرى بماذا أفاتحه وماذا أقول له وبعد برهة طويلة قلت :

« ماذا لديك تحدثنى به وماذا تطلب إلى ؟ » .

قال « لاشيء » .

وجعل شعاع النار يتلاعب حول وجهه الحزين . تذكرت الماضى فعرتنى هزة ورجفة وكادت شعبة من مهجتى تقع، وأحسست كأن كبدى تتصدع،ثم خنقتنى العبرات فبكيت بكاء غزيرا وتوقدت على أحشائى حرقة شديدة حزنا على نفسى وعلى ذلك الرجل .

ثم ندمت أيما ندم على إضاعتى ما كان قد سنح لى من فرص النعيم والسعادة ، وتلهفت على الماضى لهفا كنار الحريق المضرم

لهفى على ذاك الزمان وهل يثنى زمانا ماضـيا لهف

أم هل يبـاح الورد ثانية ويلذ برد المـاء مرتشف

أتراني فى هذه الساعة جعلت أحفل بما كنت أحفل به قبل ، من ذلك الفارق العظيم بينى وبين هذا الرجل من حيث الجاه والمنصب ؟ أترانى جعلت أعلق أهمية عظمى على تفاوت الطبقة والدرجة والثراء والنعمة ؟ أترانى جعلت أفكر فى ذلك الحائط الضخم المنيع الرفيع الفاصل ما بينى وبينه ؟

كلا ! لقد طفقت أبكى وأنتحب وأعصر فؤادى بكلتا يدى خشية أن يتصدع ؛ وجعلت أصيح :

« رباه ! رباه ! لقد ضاعت حياتى ! »

وبقى « بيوتر سرجيتش » صامتا لايفوه بكلمة ، ومن عجب أنه لم ينهنى عن البكاء ولم يقل لى هونى عليك وكفكفى من عبرتك . لقد أدرك أن البكاء كان إذ ذاك لى نافعا وأن شفائى عبرة مهراقة ، وأنه قد آن لى أوان البكاء فلا مناص منه ولا مهرب .

ولكنى قرأت فى عينيه وعلى صحيفة محياه آية الأسف والرثاء لى وكنت آسف عليه وأشد رثاء له ، واعترانى فوق ذلك نوع من الغيظ والحنق على ذلك الرجل الهيابة المحتشم القليل الجرأة والإقدام الذى قد كان فى استطاعته أن يسعدنى

ويسعد نفسه فأضاع الفرصة ولم يفلح .

ولما شيعته إلى باب المنزل رأيته يتباطأ ويتريث عمدا كأنه يعز عليه أن يفارقنى ، ثم أنه أخذ يدى وقلبها مرتين دون أن ينبس ببنت شفة ، ونظر نظرة طويلة فى وجهى المبلل بالدموع .

واعتقادى أنه فى تلك اللحظة لابد أن يكون قد ذكر تلك الليلة المعهودة ـ ليلة العاصفة والبرق والرعد وشآبيب الغيث وما كان ثمت من ضحكنا ولعبنا — ورأيته كأنما يود أن يفوه لى بشيء ويتحرق على أن يحدثنى حديثا . ولو فعل لكان فيه أيما تفريج لكربته وتنفيس للوعته ، ولكنه أمسك فلم يقل شيئا ، ولم يزد على أن هز رأسه وضغط على يدى ، كان له الله ، وفى سبيل الله ماعانى وكابد !

وعلى إثر انصرافه عدت إلى غرفتى وقعدت على الأرض إزاء النار ، وكانت أوشكت أن تخبو ، وجعل الثلج المتساقط ينتحى نافذة الغرفة فيضرب زجاجها ضربا عنيفا ، والريح خلال المدخنة تعوى وتعول !

راشيل

كان بمدينة « بون » من أعمال المانيا ، يهودى مراب ، يدعى « هارون » له ابنة تدعى « راشيل »

لقد زرت هذه المدينة عام أول ، أعنى بعد خمسة عشر حولا من تاريخ هذه القصة ، وسألت عن هارون هذا فنبئت أنه فى السجن ، من جراء جناية اختلاس وتزوير ، فسررت أيما سرور وقد أصاب منى هذا النبأ مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ـ لقد انتقم لى القدر من ذلك العدو المبين .

كانت الآنسة « راشيل » من أجمل النساء ، وكانت أول ما رأيتها جالسة إلى نافذة بدارها قد طوقتها الطبيعة بإطار من الكرم تتوقد فيه يواقيت العناقيد على صفائح الزبرجد ، ـ وقد ألقى الشعاع من بين شوابك الكرم وأوراقه على وجه تلك الغادة المفتان ، دنانير تفر من البنان ، وكانت حاسرة الذراعين والعضدين ، على خصرها الدقيق زنار من الديباج الأزرق ، وكانت تغزل كسائر الألمانيات .

وفى زاوية الغرفة كانت أختها ريبيكا » (امرأة شديدة البأس جهيرة الصوت) تعزف على البيانو أفظع عزف يصحبه أشنع غناء .

وكنت أقصد بيت أبيها لتحويل سند ، فوقفت أنشد باب الخزينة .

ووجهت الآنسة « راشيل » سؤالها إلىّ ، وأمالت جيدها الحسان فى تيه ودلال ، ورمقتنى بعينين نجلاوين زرقاوين ، سرعان ما حولتهما عنى كأنما قد أتعبهما شخصى وثقلت عليهما صورتى ، قالت بالألمانية :

« لنكس » أعنى « عن يسارك » .

فوقع لفظها منى موقع الشبم القراح ، من الظامىء الملتاح ، على أنه لفظ بسيط عادى ، ولو أسمعتنى غيرها ذلك اللفظ ألف ألف مرة لما حركت منى ساكنا ، ولكن الحسناء « راشيل » لما فاهت بتلك الكلمة افترت عن ثغر نظيم وضاح :

كأنما تبسم عن لؤلؤ منضد أو بـــرد أو أقاح

وكان لصوتها عذوبة تمتزج بأجزاء النفس وحلاوة ترسب فى أعماق الشعور والوجدان . ولا تسل عما كان خجلى وارتباكى أمام الحسناء « راشيل » وخفقان قلبى واصطكاك قدمىّ وركبتىّ ، وسقوط قلنسوتى من يدى على إثر رفعها بالتحية والشكر .

ودخلت على أبيها هارون وابنه سليمان ، فقضيت لديهما حاجتى ، فأما إنهما خدعانى فذلك من البديهيات ، فإنه لا مندوحة لليهودى عن الغش مطلقا ، فهو يغشك من أجل درهم ، بل من أجل دانق ، بل سحتوت ، وإن أولم لك بعد ذلك وأدبك مائدة حافلة تئن تحت أثقالها من الألوان ، فإنما يفعل ذلك لكى يسرق ساعتك أو كيسك ، ولا مناص له من ذلك ولو كنت أخاه أو أباه .

وقال لى اليهودى هارون وهو ينقدنى الدنانير « إن كنت يا سيدى مقيما فى بلدتنا هذه ردحا من الزمن ، فلا تحرمنى ولا تحرمن بناتى لذة الاستمتاع بطلعتك البهية ، وعشرتك الهنية » .

لم تكن بى إلى الإقامة فى تلك البلدة من حاجة ، ولكن جمال الآنسة « راشيل » فتننى وسحرنى فانتهزت تلك الفرصة السانحة فأجبت اليهودى قائلا :

« لقد نبئت أن كلية الآداب ههنا ستلقى سلسلة محاضرات فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية ، ولما كنت من عشاق هذا التاريخ ، فلا مناص لى من البقاء هنا برهة طويلة » .

وكذلك عمدت إلى فندق قريب من بيت اليهودى ، فاستأجرت به غرفة لمثواى .

وعزمت على دراسة اللغة الألمانية ، فتبرع لى اليهودى هارون بأستاذ ، موظف عنده اسمه « هرش » من أبشع الناس صورة وأقبحهم خلقة - يهودى أبيض الشعر والحاجبين والشاربين ، كأن فى رأسه ووجهه حريقة ، - جاحظ العينين ، غليظ الشفتين ، - هذا المخلوق العجيب شرع يتولى تعليمى الألمانية ، وسرعان ما أضاف إلى هذه الوظيفة مهنة أخرى فأصبح كذلك شبه خادم لى يروح ويغدو فى كافة شئونى وحاجاتى ، وكنت لا أناديه إلا بقولى « هرش ! أيها الوغد الخسيس

والنذل والنكس الدنىء ! هات حذائى ! » « هرش يا عبد السوء ويا أخا الشيطان ! نظف ردائى ! »

« هرش ! أيها الكلب الدنس ، الذئب الخبيث ! امض بهذه الرسالة إلى صندوق البريد ! » . وكان الخنزير أطوع إلىّ من بنانى ، يسترط من شتائمى هذه ولعناتى ، الشهد المكرر ، والفستق المقشر .

ومن مزاياه عندى أنه كان من ناحية الحسناء « راشيل » ليس بالحبيب المعشوق ، ولكنه من ناحيته ليس بالوردة الناضرة ، ولكنه يحمل أريجها وعبقها ، وهل فى طول ألمانيا وعرضها وردة أبهى وأنضرمن « راشيل » ؟ .. كلا ! ..

وكنت ـ كسائر أهل جلدتى من أبناء بريطانيا ـ مغرورا مزهوا فخورا ، أعتقد أن الإنكليزى سيد شعوب الأرض وأفضل من طلعت عليه الشمس ، ولا أزال فى رحلاتى وأسفارى أحتقر الأجانب وأجرعهم مضاضة ازدرائى ، وغطرستى وكبريائى ، مما كان يجلب على العداوة والبغضاء من كل إنسان ، كائنا من كان .

وبهذا الزهو والغرور والكبرياء،هذه الغفلة والحمق والغباء ـ كنت أجلس إلى الفتاة « راشيل » الساعات العديدة ، أوسعها سآمة وضجرا بفضول هرائى وهذرى ، أسخر من أهل بلادها ومن عاداتهم وأخلاقهم ـ وأنصب المسكين « هرش » هدفا لسهام قوارعى وقوارصى ، أقصد بذلك إلى تفكهة الفتاة وتسليتها حتى قلت لها إن « هرش » لا يصلح إلا حمارا أو زبالا ، فتجيبنى هى بقولها لله دركم أيها الإنجليز ، ما أخف وأحكم وأظرف فكاهتكم ! .. »

وهى فى ضميرها تسخر منى وتضحك ، وأرد عليها كالأبله المعتوه قائلا « إى والله نحن كما تصفين وفوق ما تصفين ، نحن أخف أرواحا من الألمان وأرق ظرفا ، وأعجب ملحة ونادرة » ثم أقارب بين أجفانى وأصوب إليها نظرة فتاكة إلى أنها ستفتت كبدها وتذيب أحشاءها ، ياللبله ! ويا للغفلة ! ويا للغباوة ! ..

أتدرى كيف استثمرت الفتاة غباوتى ، واستغلت غفلتى وحماقتى ؟ .. فى الجلسة الأولى سألتنى قائله :

« أيعجبك هذا الشاى الذى أسقيك منه الآن ؟ .. » وكانت إذ ذاك تقدم إلىّ كوبة من صنف من الشاى ليس بالغاية القصوى فى الطيب والجودة ، ثم

أكدت لى أنه من صفوة واردات الصين ، وأنه لا يوجد بأوروبا جميعها ذرة منه ، قلت لها حقا إنه لبديع » هذا كل ماقلته - لا أقل ولا أكثر .

وفى غد ذلك اليوم دخل على « هرش » مبتسما يحمل أربعة وعشرين رطلا من ذلك الشاى ، ولم أجد مفرا من دفع ثمنها ، اثنى عشر جنيها إنكليزيا - ولى الشرف ! ..

ولما زرت الأسرة بعد ذلك ، قال لى والد الفتاة « هارون » :

« أريد أن أذيقك بضع كئوس من نبيذ قبرص ، هذا النبيذ لا يوجد إلا عند أخى المقيم فى سالونيك » ..

وبعد أربعة أيام من ذلك سألنى المسيو هارون قائلا : « كيف وجدت لذة النبيذ الذى بعثت به إليك بناء على طلبك ؟ .. أتريد أن أبعث إليك بكمية أخرى ؟ ..

قلت له :

« عجبا ! .. ماذا تقول ؟ .. وماذا تعنى ؟ .. وأى نبيذ طلبته إليك حتى بعثت به إلىّ ؟ .. ومتى أرسلته ؟ .. »

قال :

« منذ ثلاثة أيام ، وقد وضعه « هرش » بيديه فى خزانتك » ..

ثم اقترح أن يرسل إلى صنفا آخر اسمه « ميدوك » ، ولم تمض ساعة حتى كان فى غرفتى صندوق من ذلك الصنف ، من طيه حوالة معنونة باسم جناب الكونت « فون فيتسبوديل (اسمى) .

فى ذات يوم كنت جالسا بين الفتاة وأبيها ، وكان أبوها هارون » يدخن من بيبة قد ضم عليها شفتيه ، فقالت له الآنسة « راشيل » :

« ما أعجب شأنك يا أبت ! .. تدخن فى وجه الكونت ، تؤذيه بأنفاس التبغ المتلاحقة ، أبعد قليلا ، انتبذ منا ناحية . ألا تعلم أن سراة الإنكليز وسادتهم يمقتون التدخين ؟ .. »

فأجاب محسوبك وخادمك - لقلة عقله ولسوء حظه - قائلا :

« كلا ، أنا لا أمقت التدخين ، ولقد أدخن أحيانا » ..

فصاح الرجل قائلا :

« أحضرى « بيبة » لجناب الكونت يا راشيل » ..

فصاحت الآنسة واثبة من مكانها :

« أجل ، تلك البيبة المستطيلة العجيبة الصنع التى جاءتنا من بلاد الهند منذ أيام » . وسرعان ما عادت إلىّ بأنبوبة طويلة من العناب مغشاة بقطيفة حمراء مزركشة بالذهب ، بإحدى طرفيها صحن من الكهرمان المرصع بالصدف ، وبالآخر مبسم مذهب ، وسعت بها الفتاة إلىّ تميس وتترنح ، كأنما هى آنسة من الحور العين تحمل إلىّ عودا من أشجار الجنة .

وأشعلت لى البيبة بنفسها ، وأبدت أثناء ذلك من الحركات القتالة الفتاكة ما هون على أن أدفع ثمن البيبة فى الحال أربعة وعشرين حنيها إنكليزيا ، ولا يفوتك أنى فككت مبسم البيبة ، ذلك المبسم الذى وضعته بين شفتيها فلْشرب من حلاوة ذلك الكوثر ، ثم فصلته وحده ولففته فى فرد قفاز الفتاة ووضعته تحت قميصى ، لصق أحشائى الملتهبة ليبرد غليلها . وفى تلك الليلة كنت ترانى مسهد الأجفان أتململ على فراشى ، أمامى فرد القفاز الأصفر لا أصرف عنه ناظرى طرفة عين ، وفى فمى مبسم البيبة ألوكه وأمضغه كأنه قطعة من الملبن فى شدق ابن ثلاثة ، أو حلمة فى فم رضيع .

ولما طلع على « هرش » فى صباح تلك الليلة ، قلت له :

« هرش ! .. يا كلب اليهود ! .. هل جئتنى ببقية البيبة ؟ .. أنا لم آخذ أمس سوى مبسمها » ..

قال « هرش » :

« أجل ، وجئتك معها بثمانية عشر رطلا من التبغ الذى صرحت البارحة بأنك لم تذق مثله قط ، ما أعظم فوزك فيه وما أربح صفقتك ! ... »

شهد الله ما صرحت بأدنى شىء مما عزوه إلىّ كذبا وزورا ، وما ذكرت ذاك التبغ لا بخير ولا بشر ، ولكنى كظمت غيظى وتصنعت الارتياح وقلة المبالاة بتلك الغرامة الجديدة ، وقلت ضع التبغ فى الخزانة ، لقد قبلته ، ثم غيرت

موضوع الحديث فقلت :

« اسمع يا هرش » ، أتعلم - بعد - أن صغرى بنات المسيو هارون تلك المسماة « حنة » فيما أظن .. »

فابتسم « هرش » ابتسامة لؤم ومكر ، وقال :

« ليس اسمها حنة » يا سيدى بل « راشيل » ، قلت :

« فليكن كما تقول « راشيل » ، أتعلم أنها فتانة الدلال فتاكة اللحاظ ؟ إى وربى إنها لكذلك وفوق ذلك ! .. »

قال « هرش » :

« أتلك عقيدتك ؟ .. »

« أجل ، لقد تيمتنى ، ولاعت فؤادى » ..

« لشد ما تشرفت ألمانيا ، بتنزل شريف مثلك إلى محبة إحدى بناتها »

« كم ترى مبلغ أبيها من اليسار ؟ .. وكم يجعل مهرها إذا هم بتزويجها ؟ .. »

« أما ثروة الرجل فطفيفة جدا لاتكاد تذكر ، الرجل يا سيدى فقير ، لا تبلغ ثروته كلها مقدار ما تنفق أنت فى أسبوع واحد » ..

قلت له :

« مهلا ! .. مهلا ! .. ما أغباك إذ تتهمنى بالغنى ، إنى فقير وفى الفقر عريق » ..

« أنت فقير يا سيدى ! ..ليت لى مقدار إيرادك عن نصف عام ، إذن والله لأثريت » ..

وكذب اللعين ، لقد كان أغنى منى وأثرى قلت له :

« اسمع يا هرش ! .. أتحمل منى رسالة إلى راشيل ؟ .. »

« بكل ارتياح يا سيدى » ..

لم يكن هناك ما يضطرنى إلى اتخاذ رسول بينى وبين الفتاة ، فلقد كنت أكثر التردد إليها ، وأجلس معها الساعات الطوال فى خلوة ، وما كان أسهل على من إعطائها رسائلى يدا بيد ، ولكننى كنت أجهل الناس بمسائل الحب وشئونه ،

وكنت قرأت فى بعض الروايات ، إن الخطط والتدابير فى المسائل الغرامية ليست من وظيفة العاشق وما تنبغى له ، لأنه أعلى مقاما من ذلك وأعز مكانة - إنما هى مهمة الرسول أو الخادم، ومن ثم أردت أن أجعل هرش رسولى إلى الفتاة .

ولما شرعت فى تحرير الرسالة وجدتها نكبة من أفدح النكبات ، أأكتبها نثرا أم نظما ؟ .. ومن لى بين الألفاظ الانكليزية بالقافية الموافقة لاسم الفتاة « راشيل » ؟ .. إذن أنظمها بالفرنسية وكنت أضعف الناس فى هذه اللغة ، فجاءت الرسالة كلها سخافات وأغلاطا ، من أحط ما جادت به قريحة غبى جاهل .

وتناول هرش الرسالة ،ورأيت من الحزم أن أرشوه على الصمت والكتمان ، فاشتريت منه سلسلة ساعة حديدية صدئة بأربعة جنيهات .

ولما حضرت مجلس الآنسة مساء لم تستطع مشافهتى فى أمر الرسالة لحضور أهلها وأقاربها ، ولكنى قرأت فى لين ألحاظها ورقة ابتسامتها أوضح آيات العطف والتودد ، ولفرط اضطرابى ونشوتى ، صرت أخسر الدينار تلو الدنيار لامرأة ضخمة قبيحة (إحدى عمات راشيل) كنت ألاعبها الورق ، حتى خلت جيوبى ، وفى تلك الليلة ذاتها باعنى المسيو هارون ثلاثين ثوبا من التيل لأفصلها قمصا ، ولا يفوتن القارىء أن المسيو هارون لو آنس منى أدنى ميل إلى كيلو متر مكعب من الطوب ، أو إلى جراب ثعابين ، أو إلى كفن أو قبر ، لوجدت كل هذه الأشياء على باب منزلى فى أقل من ساعة من الزمن .

وازداد شغفى بالفتاة واشتد هيامى ، وكثر ترددى على دارها وطال لبثى هنالك وتلكؤى ، وقبلت هى ذلك بالصد والإعراض ، وبالتيه والخيلاء ، ..وفى أثناء ذلك كان المسيو هارون لا يمر عليه يوم إلا ويبيعنى فيه شيئا : أطباقا ، وصحونا ، وسكاكين ، وملاعق ، وشمعا ، وصابونا ، وبنا ، وأساور وخواتم ، وحللا حريرية مبطنة بالفرو ، ومصابيح فضة ، وشمعدانات نحاس ، ودواوين شعر وكتب فلسفة ، وختم المصائب بقاموس ! ..

* * *

فى ذات يوم زارنى صديق لى صحبة رجل من تجار التبغ يدعى المسيو

« روز » وأذاقني شيئا من صنوف بضاعته ، فقلت له » محال أن يكون لديك شيء يداني ذلك الصنف الذى اشتريته من أحد كبار الملايين فى بلدتكم هذه » ..

فقال التاجر « روز » بلهجة الهازىء الساخر :

« هل اشتريته من المسيو هارون ؟ .. »

قلت « ما عدوت الحقيقة ، ولقد استورده من أخيه المقيم بسالونيك » .

« كلا ! .. إنما اشتراه من عندى ، لقد خدعك اليهودى ، وكم مثلك قد خدع وسلب ! .. »

قال صاحبى الضابط للمسيو « روز » وكأنه قد سر بمصيبتى تشفيا وشماتة :

« وهل تبيع الخمر أيضا للمسيو هارون يا مسيو « روز » ؟ .. »

قال « روز » وابتسم ابتسامة دهاء وخبث تحتها ما تحتها :

« اليهودى يصنع خمرته بيديه ، ولكن عندى صنف بديع من النبيذ اسمه « ميدوك » (يعرض بالنبيذ الذى باعنى إياه اليهودى) - وهو تحت تصرف الكونت « يريدنى » إن شاء بعثت إليه منه بما فيه أقصى المنى والمراد » ..

فأدركت ما انطوت عليه هذه الكلمة من خبث التعريض والتهكم ، والتهب الغضب فى مقلتى وصحت بالرجل « اخرج من هنا ، لا أبعد الله غيرك ! .. »

فانتفض قائما وطار من المكان مذعورا .

ثم أفهمنى صديقى أن هذه الأسرة قد خدعتنى وسلبتنى ، وأنه لا هم لها ولا شغل ولا وظيفة إلا فعل ذلك بكل من أوقعه سوء الحظ فى حبائل غشها ، وأشراك خداعها .

* * *

ولما لج بى الهيام ، وأوشك أن يودى بى الغرام ، عقدت النية على مشافهة راشيل فى ذلك الأمر الخطير ، فاقترحت على الأسرة ، وكنا عائدين من بعض الحفلات إلى دارهم - أن نجول ساعة فى الرياض والبساتين ، وأخذت بذراع « راشيل » ومشى اليهودى هارون مع ابنته الأخرى ، واللعين هرش مع خالة حبيبتى ، وأسرعت بالفتاة حتى سبقتهم بها مسافة بعيدة وخلوت إليها وأقبلت

أمطرها وابلا ثرا من عبارات الغزل وكلمات العشق ، وأنات الوجد والصبابة ، وهى جامدة كالصنم لا تنبعث منها جارحة ، ولا تخفق لها نابضة ، ولا تفوه ببنت شفة ، إلى أن قلت لها :

« انظرى إلى ضياء هذا الليل فى سواده ، إنه لا شبيه له سوى عينيك ! .. » وبقيت صامته جامدة ..

فلما عيل صبرى ، قلت لها :

« راشيل ! .. راشيل ! .. إنى أحبك ، وأراك تعرفين ذاك منذ زمان ، ما بالك تنزعين يدك من يدى يا حبيبتى ! .. ألم نتعاهد على العشق والوفاء ؟ .. ولئن لم نتفاوض فى ذلك باللسان ، لقد تفاوضت فيه منا العينان ، والمهجتان ، كونى زوجة لى يا راشيل ! .. »

وانهلت باللثمات على يديها ، وكنت لا شك متنقلا إلى وجنتيها ، لولا أنها لطمتنى على وجهى أشد لطمة ، ونفرت عنى شاردة ، ثم سقطت من قامتها على الثرى وطفقت تصيح بأعلى صوت ..

وهنا أقبل اللعين « هرش » يعدو كالذئب الجائع حتى انحنى فوق الفتاة ، يصيح :

« زوجتى ! .. زوجتى ! .. زوجتى راشيل ، ما خطبك وماذا دهاك ؟ »

ونهضت الفتاة (بل المرأة) فألقت بنفسها بين ذراعى زوجها هرش » وهى تصيح « زوجى لورنزو ! أنقذنى ! نجنى ! أدركنى ! »

وصاح هرش قائلا :

« يا للرجال لذلك النصرانى الوغد ، يريد أن يختطف سيدة شريفة من أحضان زوجها الشريف .. »

وصاحت راشيل :

« الغياث والنجدة من ذلك اللص ، يهم أن يفتك بالسيدات ذوات الطهر والعفاف .. »

وفى مساء ذلك اليوم كنت على المحطة أنتظر القطار لأرحل عن تلك البلدة

بالخزى والهزيمة ، ولما جاء القطار وأخذت مجلسى إلى إحدى النوافذ ، ودق الجرس الثالث ، ما راعنى إلا منظر الشيطان الرجيم « هرش » ماثلا أمامى وعلى وجهه أخبث ابتسامة ، وألاح لى بيده الأثيمة وصاح قائلا :

« سيدى الكونت ! .. ما رأيك فى ستة أرطال من أجود التبغ وزجاجة من أعتق النبيذ تقتل بها الوقت أثناء السفر وتدفع بها الضجر والملل ؟ ..لقد جئتك بها على عجل ، لما بلغنى نبأ رحيلك ، والدفع على مهل » ..

وتحرك القطار .

الملك

كان الملك على سرير الموت ، لا يسمع زفرات زوجته الصغيرة الحسناء ولا يرى دموعها المنسجمة .

كان مستلقيا فى سكرة الموت ، إحدى يديه مطروحة على اللحاف ، كأنما تنشد ضالة ، وقد أخذتها الملكة فى كفها ، ولكنها لم تحس بها أية الشعور ، وأخيرا أغمضت العينان ووقف القلب .

ولما عاد الملك إلى شعوره ، وأجال فى المكان نظراته ، ألفى السكون شاملا ، وكان ذلك السكون المستلذ بردا وسلاما على قلبه ، وروحا وريحانا ، فأحس كأنه فى الفردوس ، وكانت الحجرة مفعمة بنفحات الأزهار ، وهبت عليه نسمات الليل الغضة من خلال نافذة مفتوحة ، وكان على حافة سريره مما يلى قدميه صف من الشمع يرسل ضياء لينا رطبا ، وحوله خمسة رجال يحرسونه ، وقد مال النعاس بأعناقهم وارتفع شخيرهم .

لقد شعر إذ ذاك بما لم يشعر بمثله قط من الغبطة والهناء والسعادة ، فاستسلم إلى ذلك الشعور اللذيذ الجديد وأخلد واطمأن ، حتى لقد أبى أن يتحرك خشية أن تذهب الحركة بشىء من تلك اللذة الفردوسية ، وبعد برهة دقت ساعة القصر الكبرى إحدى عشرة ، فتحرك الملك فى مضطجعه ثم جلس وضحك ضحكة خفيفة .

وهنا تذكر أنه لما كان فى سكرة الموت ، وقد جعل يذهب عنه عقله وهو يحاول استرداده بأقصى جهده ، وقد رفع بصره يسائل القضاء الظالم لماذا يخرجه من الدنيا أحوج ما تكون إليه الدنيا ، سمع هاتفا يناجيه قائلا : « أيها الملك ، أنت تحسب الدنيا تحتاج إليك أشد الحاجة ، فلندعك فى حسبانك هذا ، ولنمنحك بعد موتك ساعة تختبر فيها أهل دنياك وتسبر عواطفهم نحوك ، فإن أصبت فيهم ثلاثة يشتهون حياتك فعش ! »

وكذلك كانت هذه الساعة ساعته التى اختطفها من بين براثن الموت .

لقد علم أنه كان عادلا رحيما ، برا كريما ، كثير السهر على مصلحة رعيته ، ثم إنه نزل عن سريره وخرج من الغرفة ، ولكنه وقف ببابها مترددا ، لايدرى إلى أين يذهب أولا : أيذهب إلى زوجته ؟ كلا ! كيف يستطيع أن يراها وهى فى أشد حالات الجزع تقطع نفسها حسرة وكمدا ، وتود لو تهلك أسى ووجدا ، كلا لن يذهب إلى الملكة وهى على هذه الحال ، إن ما تخيله من هيئة جزعها وتفجعها أوهى جلده ، وهد ركنه ، وبدد نظام أعصابه ، كلا ! لقد أرجأ لقاءها إلى ما بعد ساعة الاختبار هذه ، أى إلى وقت يستطيع فيه أن يضمها بين ذراعيه ويقول لها : « بشراك ، لقد عدت إلى الحياة حقا ، فطيبى نفسا وقرى عينا »

وبعد ، فإنما هى ساعة واحدة ويرجع إلى الحياة الدنيا ، ثم لن يتذكر مما هو فيه الآن إلا أضغاث أحلام .

وخرج من باب القصر ، وامتدت أمامه مدينة تحت قمر باهر .

وشملة الظلماء مكفورة تحت رداء القمر المذهب

وقال فى نفسه :

« ثلاثة يشتهون بقائى ! ويل لذلك الهاتف ! والله لو شئت لجئته الساعة بثلاثة آلاف .. أليست الرعية جميعا أبنائى البررة ؟ »

على بضع خطوات من باب القصر ألفى الملك طفلا صغيرا قد افترش الثرى يبكى ويعول ، ولما سأله الديدبان عن علة بكائه أجاب قائلا :

« لقد ذهب أبى وأمى إلى جنازة الملك ولم يعودا ، وها أنذا أقاسى الجوع والظمأ ، وقد انكسرت لعبتى ، وها أنذا أصيح وأنادى وما من سميع ولا مجيب ، وكل ذلك لوفاة الملك .. ألا ليت الملك يبعث ويعيش ! »

ثم أجهش بالبكاء ثانيا .

فسر الملك بذلك كثيرا ، وقال فى نفسه :

« هذا أول فرد من رعيتى يشتهى عودتى إلى الحياة .

وكان الملك لم يرزق البنين ، فحن قلبه لذاك الصغير ، ورق فؤاده ، وود لو

جلس إليه فبكى لبكائه ، وواساه وسلاه ، ولكن مجال الوقت كان أضيق من ذلك .

عمد الملك إلى دار أصدق أصدقائه ، وأوفى أوليائه ، وأحس بنوع خبيث من اللذة إذ جعل يصور لنفسه ما سوف يجد عليه صديقه هذا من غلواء الحزن وبرحائه .

وقال فى نفسه :

« لهفى عليك يا صديقى « إمياس » ! لقد والله أستطيع أن أدرك مبلغ حزنك قياسا على ما كان يلحقنى لو كنت أنت المفقود دونى ، وشد ما يسرنى أن أكون أنا الهالك ، إذ لو بقيت بعدك لما أطقت احتمال مصابك »

ثم دخل دار صاحبه فوجد ساحتها مقفرة ، وكلما أفضى إلى حجرة وجدها خاوية ، وبينما هو فى إحدى الغرف الخالية ، دخل عليه شخصان يتحادثان ، أحدهما سيدة الدار ، زوجة صديقه ، والثانى سفير من سفرائه شاكى السلاح ، كأنما قد قدم من بلاد قاصية ، وقال ذلك السفير يخاطب السيدة ربة البيت :

« أين زوجك إمياس ؟ »

فأجابت قائلة :

« لقد ذهب إلى الملك الجديد ، ليؤدى إليه فرائض التهاني ، ويهبه الطاعة والولاء ،ويبرأ إليه من التعلق بذكرى الملك السابق ، والواقع أن مليكنا الجديد أفضل ألف ألف مرة من السالف ، الذى لم يكن سوى حدث طائش مأفون الرأى مستضعف ، وإنى لأخشى أن ما كان لزوجى عند الملك السالف من المكانة والزلفى ربما أزرى به عند الملك الجديد ، ولكن زوجى مستطيع إن شاء الله أن يستجلب رضاه وعطفه بالطعن على سلفه والقدح فيه ، واستنكار خطته العوجاء ، وسيرته الخرقاء ، وسياسته الهوجاء ، ولعل العاقبة سليمة . ولا أنكر أن زوجى كان للملك السالف ، شديد التعلق بأذياله ، والتمسك بحباله ، ولكنا مضطرون أن ننظر إلى أنفسنا ، وإلى مصلحتنا ، والمصلحة قبل العاطفة ، والعاقل من لبس لكل زمن لبوسه ، ودار مع الدهر كيفما دار ، وعلى هذه النية أسرع زوجى إلى الملك الجديد لينال الحظوة لديه ، وقد أرسلت وراءه حاشيته وأتباعه »

وكان فى ذلك السجن عدو ألد الخصام ، كان قد حاول الخروج عليه وقلب ملكته ، وقد حكمت عليه المحكمة بالإعدام (لم تكن عقوبة بالإعدام قد ألغيت) ، عمد الملك إلى السجن ودخل غرفة عدوه المذكور ،فألفاه يكتب ورقة والسجان على رأسه ، يصحبه مدير السجن .

فرفع السجين رأسه وقال :

« ماذا تريدان الآن ؟ .. أليس الصباح هو الموعد ؟ .. على أنى مستعد فى كل لحظة ، هلا تفضلتما بإبلاغ هذه الرقعة إلى زوجتى ؟ .. »

فقال له مدير السجن « لاحاجة بك الآن إلى أن تبعث لزوجتك برسالة الوداع الأبدى ، فلقد مات الملك ، وفى نية الملك الجديد ، أن يطلق المساجين جميعا ، فافرح بالنجاة واغتبط ! »

فصاح السجين مذعورا « مات الملك ! .. »

ثم وثب واقفا ومسح على جبينه بيده وقال بصوت حار يلتهب فى نبراته الإخلاص والحزن ..

« سيدى ، لقد كنت أحترمه ، على العداوة والبغضاء ، لقد كان على أية حال رجلا جادا مخلصا ، ولقد عاملنى معاملة الحر للحر ، وله مثلى زوجة صغيرة تبكيه وتنديه ، رحمه الله رحمة واسعة ، ليته بقى لأهله ورعيته ! »

واغرورقت عيناه بالدموع ...

ودقت الساعة الربع الثالث والملك يغادر السجن .

لقد أفعم فؤاده خشوعا ومذلة ، إذ كانت رحمة عدوه ورثاؤه أشد وطأة عليه وغضاضة من خيانة أوليائه ، ولكنه لفرط مروءته ونبله احترم عاطفة النبل فى ذلك العدو وأجل فيه شيمة الكرم والمروءة ، لقد تجلت له الآن صورة الحياة وسخفها وحقارتها ، وغدر أهلها ولؤمهم فى أجلى مظهر ، وتبين له أن الحياة أحقر وأخس من أن يطمع فيها ثانيا ، وتندم على ما كان منه من سخطه على القدر حين أماته فأنقذه من شرها ،لقد ساءه أن ما اعتمد عليه من محبة الرعية ووفائها لم يكن إلا وهم واهم وحلم حالم ، وأن الشعب الذى من أجله طالما كد ونصب ، لم يكن لمساعيه وجهوده أهلا ولا بخدماته الجليلة جديرا وأنه لم يكن له من صديق

يود بقاءه سوى عدو نبيل وطفل ساذج . أليس أجدر به وأولى أن يثوب إلى ظلمة القبر مستسلما لحكم القضاء ؟ لقد تلقى درسا بليغا وهو الرضا بما قدر له ثم يثوى في مقره الأخير وينام نومة طويلة هادئة .

تراكمت السحب الكثيفة دون القمر ونفحته قرة قارسة ، وتملكته وحشة أليمة قاسية ، أحقا ليس ثمت من ولى ولا صاحب ؟ لقد هان عليه إذ ذاك أن يضحى بكل شيء مقابل نظرة حنان أو كلمة مواساة ، لقد تاقت أذنه إلى سماع مواثيق الحب وعهوده

وصل إلى باب مقصورة زوجته ولكنه وقف مترددا . أليس من المحتمل أنه قد خدع أيضا فى زوجته وإنها كسائر الناس كاذبة غادرة ؟ أليس أولى له أن ينقلب إلى مثواه قبل أن تتكشف له الحقيقة المؤلمة ؟

وألفى زوجته جالسة وحدها إلى المصطلى قد ستر وجهها شعرها المنسدل على منكبها فما هو أن أبصرها على هذه الحال حتى تندم على ما كان من سوء ظنه بها .

وكان على خنصرها خاتم كان قد وهبه إياها ليلة الزفاف يتألق ويتلألأ ولم يك فى الغرفة شيء مضيء غيره .

لقد كان بوده أن يواسيها ، وعجب لماذا انصرف عنها وصائفها وجواريها ، لقد كان من الواجب أن تبقى معها ولو واحدة منهن في أولى ليالى مصابها ، وكانت فى لجة هواجسها غارقة ، ليتها تنظر إليه نظرة أو تناديه باسمه اولكنها ظلت صامتة .

لقد سمع صوتا ضئيلا أزعجه ، إذ انفتح باب سرى فى الحائط ، وكان الملك يعتقد أنه لا أحد يعلم بمكان ذاك الباب إلا هو وزوجته ، ثم أبصر رجلا أمامه .

ووضعت الملكة أصبعها على فمها إيذانا بالصمت ، ثم قامت فألقت بنفسها بين ذراعى ذلك الطارق ، وقالت له :

« أو قد جئت أخيرا ؟ لقد عيل صبرى ، ما أشد فرحتى ! لقد بقيت قابضة على يده حتى وقف نبضه ، لماذا تركتنى وحدى تلك البرهة الطويلة ؟ لقد خشيت أن يطرقنى خياله ! ولكنه لن يعود أبدا ! لقد خلا لنا الجو ، فحق لنا أن نغتبط

ونسعد ! ثم نزعت الخاتم عن خنصرها ، فقبلته ، وأهدته إياه . ولما دقت الساعة اثنتى عشرة هب الحراس من منامهم ، ونظروا إلى جثة الملك فألفوها ممدة يابسة كما كانت ، ولكن الوجه أصابه تغير شديد لقد كان عند صعود الروح مشرقا بساما ، فتنكرت بشاشته وانطفأ نوره !

وقال الحراس :

« شد ما تشنعت صورته ! أولى لنا أن لا ندع الملكة تراه ثانية » .

لويــزا

قبلت دعوة البارون إلى مصطافه بالريف لقضاء موسم الصيد هنالك فركبنا القطار إلى إقليم « نورماندى » وفى محطة « الفيمار » نزلنا فاعتلينا مركبة فخمة ذات جوادين يسوقها فلاح مديد القامة أشيب الرأس والشاربين . وبعد أن صافح البارون سواقه الأمين واندفعت المركبة فى مسيرها قال لى صاحبى :

« وهذا السائق أشد الناس محبة لى وإخلاصا »

وما زالت المركبة تنهب المدى وتطوى بنا الأرض طيا حتى بلغنا منزل البارون فدخلناه وجلسنا بغرفة السمر ، وأخذنا فى شئون الحديث من جد إلى هزل ، ومن حزن إلى سهل ، ثم تعشينا ، وكان إذ ذاك المسيو « جان » سواق البارون وخادمه وحارس منزله يتولى خدمتنا بمنتهى الأدب والإخلاص والولاء ، حتى إذا فرغنا من الطعام أقبل على سيده البارون فسأله الانصراف قائلا « اسمح لى الآن بالذهاب يا سيدى فإنى لم أعتد السهر »

فأعطاه البارون يده وقال له بصوت تلتهب فى غضونه حرارة العطف والحنان والرحمة :

« لا بأس يا صديقى صحبتك السلامة ويكلؤك الله بعين رعايته »

ثم ذهب الخادم الأمين ، ولم أملك أن قلت للبارون :

« ما رأيت سيدا أشد عطفا على خادمه منك على هذا الرجل »

قال البارون :

« إن لى معه لحديثا مؤثرا يوشك أن يكون مأساة ، وهذا هو سر ذلك العطف والحنان ، وهاكه :

قد تعلم أن والدى المرحوم كان « ميرالايا » بالجيش وكان هذا الرجل خادمه ، ولما اعتزل والدى الجندية أخذ خادمه هذا فى خدمته الخاصة وكان عمره إذ

ذاك أربعين عاما ، وكنت أنا يومئذ فى الثلاثين من عمرى ، وكنا فى ذلك الوقت نعيش جميعا بقصرنا المسمى « قصر فارلين » ..

فى تلك الآونة كان لوالدتى وصيفة من أجمل الفتيات وأبرعهن حسنا وملاحة .

وكنت كثير المداعبة لتلك الفتاة ، أقبلها أحيانا فى الدهاليز والأركان المظلمة ـ وهذا أقصى ما كنت أصنع معها إذ كانت فتاة عفة شريفة . وكنت أنا شديد الاحتفاظ بناموس الأدب والفضيلة أرعى حرمة الدار الأبوية ولا يمر بخاطرى ألبتة أن أمس كرامتها أو ألوث طهرها وقداستها

واتفق أن خادم أبى ـ ذلك المسيو « جان » آنف الذكر ـ أحب هذه الفتاة وهام بها وجدا حتى أوشك أن يجن بها جنونا ، وكان أول أعراض هذا الحب عنده فرط الذهول والنسيان والصمت والإطراق ، والانصراف عن الطعام والشراب .

وجعل والدى لا يزال يسائله :

« ما بالك يابنى . أعليل ؟ فما علتك وما شكاتك ؟ »

فكان يجيب بقوله :

« كلا يا سيدى البارون ما بى من علة ولا شكاة أدام الله عليك الصحة والعافية »

وسرى فيه الداء فهزله و أضناه ، حتى صار جلدا على عظم ، وبلغ من فرط ذهوله وتدلهه أنه كان لا يزال يسقط الصحون والأطباق من يديه فيحطمها بددا ويهرق ما بها من أطايب الطعام والشراب ، فجئناه بالطبيب فزعم أن به أمراضا عصبية ووصف له دواء فلم ينجع فيه الدواء ، وعظم الأمر على والدى وكان شديد الحب لخادمه فعزم على إرساله إلى المستشفى فلما سمع الخادم الأمين بذلك تقدم إلى والدى واعترف بسريرة أمره وحقيقة حاله وقال له بصوت خافت وجلى :

« سيدى البارون .. »

قال أبى:

« لبيك يا ولدى »

قال الخادم

« ما بى إلى الدواء من حاجة »

« ما جاجتك إذن ؟ »

« الزواج يا سيدى »

فدهش والدى أيما دهش وقال :

« تقول ...تقول ...ماذا تقول ؟ »

« الزواج حاجتى يا سيدى البارون »

« الزواج يا حيوان ! إنك إذن عاشق مغرم وصب متيم أيها البهيم الأبله ؟ »

« هذا هو السر يا سيدى »

فضحك والدى حتى بدت نواجذه ونادى والدتى فقص عليها الحديث وعيناه مغرورقتان بدموع السرور والضحك .

ولما سمعت والدتى قصة الخادم لم يعروها الضحك كوالدى ، ولكن الحزن والرثاء لذلك الصب العميد ، المنكوب بشر آفات هذا الوجود ـ آفة الحب .

فسألت الرجل :

« ومن تلك الفتاة التى تيمتك ولاعت فؤادك ؟ »

فاعترف بلا أدنى تردد ، قائلا :

« وصيفتك لويزا ، يا سيدتى البارونة »

قالت والدتى :

« لا بأس عليك ، لن نألو جهدا فى سبيل إبلاغك مناك وأوطارك »

وعلى أثر ذلك استدعيت « لويزا » وسئلت عن هذا الأمر ، فقالت إنها قد اطلعت على غرام « جان » وأنه قد باح لها بسره مرارا ، فرفضت مطالبه ، ولم تصرح لوالدتى بأسباب رفضها .

ومضى شهران ، لم يبرح أبواى فى خلالهما يلحان على الفتاة أن تقبل « جان » بعلا ، وهى على الرفض والإباء مصرة ، حتى غضب والدى وأكرهها على القبول

إكراها ، وعزز إغراءه بكيس ضخم من الدنانير ودخل بها جان » وأعفيا من الخدمة ومنحا قطعة من أرضنا بجوار هذا البيت . يستغلانها ويعيشان من ريعها ، ولبثت ثلاث سنين لا أراهما ولا أسمع عنهما شيئا ، وفى نهاية هذه المدة جاءنا نعى « لويزا » زوجة « جان » . وأنها ماتت مسلولة .

ومات من بعد ذلك والدى ثم والدتى ، ولبثت عامين آخرين لا أرى « جان » .

وأخيرا جال بخاطرى أن أذهب للصيد إلى ضيعتى هذه التى نحن بها الآن . فنزلت بهذا المنزل ، وكان جان يتولى حراسته كما نراه اليوم .

واستقبلنى جان فما كان أشد دهشتى حينما رأيت الشيب قد شمله كما يشمل الأرض الجليد فى كبد الشتاء ، مع أنه لم يكن إذ ذاك يتجاوز السادسة والأربعين

فاحتفيت به ولاطفته وأشركته معى فى العشاء على عين هذه المائدة التى نجلس حولها الآن .

وما كادت الخادمة تنصرف إلى مرقدها بعد أداء واجباتها نحونا ، حتى همس إلى جان بغتة بصوت خفى غضيض ، قال :

« سيدى البارون .. »

قلت له :

« خيرا يا مسيو جان »

« إن لدى شيئا أريد أن أسر به إليك »

« لا تثريب عليك يا جان ، قل ما بدالك »

« إنه .. إنه .. سر أليم موجع » ..

« ألقه عن فؤادك ، وفرج به كربتك ، فإنه لاضير عليك » .

« تذكر لويزا زوجتى ؟ »

« لا مراء فى ذلك ، إنى لأكاد أبصرها الآن بناظر الذكرى »

« لقد حملتنى إليك - قبل وفاتها - رسالة ، تلك وديعة عندى مقدسة لن أستريح حتى أؤديها »

« وماذا عسى تكون تلك الرسالة ؟ »

« اعتراف ـ كما يقولون ـ يا سيدى » ..

« وماذاك الاعتراف يا جان ؟ »

« إنها لم تمت بداء السل يا سيدى .. إنها ماتت أسى وكمدا .. هذه خلاصة الاعتراف يا سيدى ، فإن أردت بيانا وشرحا ، فهاكه :

لما احتملت لويزا إلى مقرى الجديد بعد مغادرة منزلكم العامر أسرع إليها الهزال والضنى ، وأخذت تذوى وتذبل كالغصن حرم الرى والهواء والضياء فلو رأيتها يومذاك ما عرفتها ، لفرط ما صوح من زهرتها ، وذهب من بهائها وخضرتها ، وتنكر من بشاشتها ، فدعوت لها الطبيب فقال أنها علة الكبد ، وكم اشتريت لها من الأدوية والعقاقير ، ولكنها ابت ان تنال منها كثيرا او قليلا ، قائلة « دعنى من كل ذلك ، إنه عديم الفائدة »

حقا قالت ، إذ تبين لى أن داءها خفى كمين ، ليس مما ينجع فيه الطب ، ولا يصل إلى مكانه دواء .

ثم رأيتها لا تزال تبكى لا ترقأ لها دمعة . فحرت في أمرى ولم أدر ماذا أفعل ؟ فشرعت اشترى لها ضروب الحلى والتحف أريد أن أسرها لعل فى عوامل السرور برا أو شفاء ، أقدم لها أسارو وقلائد وأقراطا ، وفساتين وبرانيط (من آخر طراز) وطيبا وعطرا ، ودهانا للشعر وهلم جرا .

وكل ذلك بلا جدوى وأيقنت أنها لا محالة هالكة .

فى ذات ليلة وقد لبثت طول يومها طريحة الفراش سألتنى أن أذهب فأحضر قسيسا ، فمضيت على الفور .

ولما جاء القسيس التفتت إلىّ وقالت :

« جان » سأوجه اعترافى إليك ، فإنى إليك به مدينة ، فأصغ إلى يا « جان » كن على يقين أنى ما ما خنتك قط ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وإنى أشهد الله على ذلك وأشهد أبانا القسيس هذا الذى ما إخال إلا أنه يستشف الآن قرارة نفسى ، ويقرأ صحيفة ضميرى . أصغ إلى يا جان واعلم أنى إن أمت فذلك لأنى فجعت أيما فجيعة بفراق قصر البارون ـ فجيعة لم أستطع عليها عزاء ، وليس لهذا من سبب سوى شدة صداقتى للبارون الصغير « رينيه » ـ شدة الصداقة ـ افهم ما

أقول ـ الصداقة البحتة المحضة التى لا شائبة . وانقطاع هذه الصداقة هو ما يذيبنى الآن ويبيدنى ويمحونى ، ويشهد الله أنى فارقته وعلمت أنه فراق لا لقاء من بعده ، أحسست فى نفسى دبيب الفناء وأيقنت أنى هالكة ، ولو كنت نظرته لمد الله فى أجلى ، وإنى أريد أن تبوح له بذلك يوما ما ـ بعد وفاتى ـ أقائل أنت له ذاك ؟ إنى أستحلفك فاحلف . احلف يا جان أمام هذا القسيس . إن فى ثقتى بأنك قائل له يوما ما ، إنى مت من حرقة فراقة » لبردا على كبدى المقروحة وسلاما ، أقسم على ذلك » ..

فأقسمت لها يا سيدى البارون ولم أحنث فى يمينى .

ثم سكت وأثبت فى عينىّ ناظريه .

وإنك لن تستطيع أن تدرك فرط ما شفنى من الحزن لدى سماع هذا القصص من ذلك الرجل الذى قتلت زوجته ، من حيث لا أشعر ولا أدرى .

فقلت له متلجلجا :

« وا أسفا عليك يا جان ! واحر قلبى عليك يا جان ! »

فوسوس قائلا :

« لقد قضى الأمر يا سيدى البارون ، هذا حكم الواحد القهار ولا مرد لحكمه »

فشددت بيدى على يده وأجهشت بالبكاء وسألنى قائلا :

« هل لك فى زيارة قبرها ؟ .. »

فطأطأت رأسى قبولا ، دون أن أنبس بكلمة .

وعلى ذلك نهض جان فأسرج مصباحا ،وتقدمنى إلى المدفن ففتحه ودخل وأنا على أثره . وهنالك رأيت صلبانا سودا ، وما لبث أن وقف على مربع من الرخام فوضع عليه مصباحه وقال « هاك قبرها » ثم أومأ إلى أن أقرأ ما عليه من الكتابة ، فتلوت العبارة الآتية منقوشة على الرخام فى ضوء المصباح :

« هذا قبر لويزا مارينيت زوجة جان فرانسوا ـ العفة الطاهرة النقية ـ عليها رحمة الله ورضوانه » ..

فجثونا راكعين على ضريحها والمصباح ما بيننا ، وكانت ليلة مطيرة ، فجعلت شآبيب الغيث تضرب الرخام فترفض عنه رشاشا يتساقط على جوانبه الأربعة فينسكب منها ويتحلب .

تأملت هذا ثم تذكرت ذلك الفؤاد الرقيق الثاوى تحت ذاك الحجر الأصم .

« فى ذمة الله ذلك القلب الذى كان يذوب رقة ويفيض إحساسا ! »

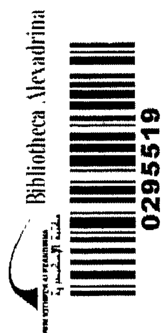
ومنذ تلك الليلة ، آليت على نفسى أن أجعل زيارة هذا الضريح فريضة سنوية لا أقصر فى أدائها ولا أفرط ، وما زلت بذلك العهد وفيا .

على أنى لا أدرى لماذا يعرونى الضيق والكرب فى حضرة ذلك الرجل « جان » كأنى مجرم أثيم ، ولماذا لا تزال تبدو عليه سيما الذى قد تغمدنى بعفوه وإحسانه ، ووسعنى بصفحة وغفرانه .

فهرس

رقم الإبداع ٣٨١٦ / ٩٤
I.S.B.N : 977 - 11 - 0858 - 1

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش